

الإستشراق

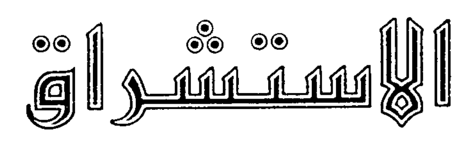
بين الحقيقة والتضليل

«مدخل علمي لدراسة الإستشراق»

د/ اسماعيل على محمد

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

للنشر والتوزيع



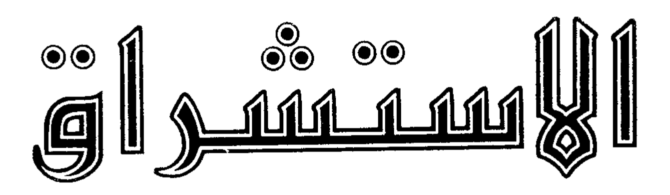
بين الحقيقة والتضليل

(مدخل علمي لدراسة الاستشراق)

الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

الطبعة الثالثة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م



بين الحقيقة والتضليل

(مدخل علمى لدراسة الاستشراق)

دكتور / إسماعيل على محمد


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فهذا بحث متواضع فى موضوع هام ، أردت به أن يكون بمثابة مدخل إلى دراسة الاستشراق والمستشرقين ، وألقيت فيه الضوء على مفهوم الاستشراق وتاريخه ، ودوافعه ووسائله ، ثم أشرت إلى ملامح منهج البحث الاستشراقى فى الدراسات الإسلامية ، ثم ختمته بذكر نماذج من حملات المستشرقين ومفترياتهم على الإسلام .

والواقع أن موضوع الاستشراق والمستشرقين من الموضوعات التى حصل بشأنها تلبيس كثير ، وأريد لها أن تُفهَم على غير وجهها الصحيح ، وصاحبها - فى بعض الأحيان - تضليل يُعمِّي على الناس حقيقتها .

وقد تبنّى أتباع المستشرقين وتلاميذهم فى عالمنا الإسلامى والعربى ، خط الإسراف والمغالاة فى تقدير المستشرقين ، وجعلهم فوق مستوى المؤاخذة والشبهات ، وحاولوا تضليل الناس وخداعهم بأن الحركة الاستشراقية حركة علمية بريئة من الأغراض والأهواء

والنزعات العدائية لعالم الإسلام ، وأنها لا علاقة لها ألبتة بمؤازرة القوى المعادية للإسلام والمسلمين ، وحرصوا على رسم صورة مشرقة وضاءة للاستشراق ، لا تشوبها أية شائبة .

وهذا المسلك خداع عن الحقيقة ، وطمس لمعالمها .

ونحن لا ننكر أن من بين المستشرقين نفراً قليلين ، حملوا أنفسهم على التزام الموضوعية ، والنزاهة والتجرد لوجه الحق ، وقد آل الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام ، والرضى بالله تعالى ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا .

ولكن هذه القلة النزيهة من المستشرقين لم تحتل - مع الأسف - موقعا مرموقا فى إطار حركة الاستشراق ، بل ولم تستطيع أن تشكل تياراً بارزاً فيها - لأسباب سوف تتضح فى ثنايا البحث - .

ومن المؤسف أن مسلك التضليل الذى تبناه تلامذة المستشرقين والمبشرين وأشياعهم من العلمانيين والمتغربين فى العالم الإسلامى والعربى ، أريد له أن يكون النغمة السائدة وصاحب الصوت العالى فى حياتنا الفكرية والثقافية .

لهذا وغيره كانت هذه الدراسة " الاستشراق بين الحقيقة والتضليل " التى حاولت فيها أن أجلّيَ حقيقة الأمر فى هذا الموضوع الخطير ، مدللا على كل قضية أسوقها ، أو رأي أذهب إليه ، متجرداً للحق ، متحليا بالموضوعية والبعد عن الهوى ، فإن وفّقت للصواب فمن فضل الله تعالى ، وإن كان غير ذلك فمن نفسى وأستغفر الله من

كل تقصير .

هذا ، وإننى إذ يسعدنى أن أقدم هذا البحث المتواضع إلى طلاب المعرفة عامة ، وإلى أبنائى طلبة كليتي أصول الدين والدعوة ، والدراسات الإسلامية والعربية ، فى جامعة الأزهر الشريف ؛ أسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن ، وأن يعم به النفع ، وينصف به الحق ، ويجعله فى ميزان حسناتى يوم الدين .

ربنا اغفر لى ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

والحمد لله رب العالمين .

وكتبه : أبو أسماء

دكتور / إسماعيل علي محمد علي

صباح الجمعة : ١٨ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ

٩ أكتوبر ١٩٩٨م

فى : كفر حماد – كفرصقر – الشرقية

الفصل الأول

مفهوم الاستشراق وتاريخه

مفهوم الاستشراق والمستشرقين

الاستشراق فعله " شرَق " ، وفى معاجم اللغة : " شرقت الشمسُ: طلعت ، وبابه نصر ودخل " (١) ، وشرَّق : أخذ في ناحية المشرق. والشرق : الشمس وجهة شروق الشمس . وشجرة شرقية تطلع عليها الشمس من شروقها إلى نصف النهار .(٢)

ومصطلح " الاستشراق " وما يتصل به نحو " مستشرق " يعد من التسميات الحديثة ، وإن كان مدلولها غير حديث - كما سيظهر لنا عند الإشارة إلى نشأة الاستشراق وتاريخه - .

ويقرر إسحاق موسى الحسينى أن " لفظة " استشرق " ومشتقاتها مولدة ، استعملها المحدثون من ترجمة كلمة Orientalism ثم استعملوا من الاسم فعلا ، فقالوا استشرق : وليس في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربى ، والمدققون يؤثرون استعمال " علماء المشرقيات " بدلا من " مستشرقين " ويؤثرون استعمال " عربانى "

---

(١) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ص١٤١ . مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٨م .

(٢) المعجم الوسيط ١ / ٩٩٤ مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ط الثالثة .

لدارس العربية مقابلة للفظـة Arabist ولكن لفظـة " استشـرق " ولفظـة " مستشرق " قد شاعتا شيوعا كبيراً ، ولا بأس من استعمالهما في بحثنـا هذا " (١) .

ويقول أحمد حسن الزيـات : يـراد بالاستشـراق اليـوم دراسـة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداتـه وأساطيره ، ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد بـه دراسـة العبريـة لصلتها بالدين ، ودراسة العربية لصلتهـا بـالعلم ، إذ بينمـا كـان الشـرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة مـن أضـواء المدنية والعلم ؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غيـاهب مـن الجهل الكثيف والبربرية الجموح (٢) .

ويذهب المستشرق الألمانى بارت إلى القول بـأن الاستشـراق علـم يختص بفقه اللغة خاصة ، وبما أن الكلمة مشتقة مـن كلمـة شـرق التـى تعنى مشرق الشمس ، فإنه يرى أن الاستشراق هو علم الشـرق أو علـم العالم الشرقي ، ثم يحاول تحديد مفهوم مصطلح الشرق وما تعنيه الكلمة في هذا المقام ، فيتبين أن هذه الكلمـة تعرضـت إلـى تغيير فـي معناهـا الجغرافى بحسب العصور وحوادث التـاريخ ، ثـم يخلـص إلـى القـول : ومهما يكن من أمر فإن الاسـم لايبيـن بوضـوح مستقيم المقصـود منـه بالضبط ، والمهم هو الموضوع (٣) .

---

(١) فلسفة الاستشراق . د / أحمد سمايلو فيتـش ص ٣٠ . دار المعـارف . مصـر . نقـلا عن الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه . إسحق موسى الحسينى جـ١.

(٢) تاريخ الأدب العربى ، ص٥١٢ . دار نهضة مصر . القاهرة .

(٣) فلسفة الاستشراق ص٢٣-٢٤ نقلا عن ر. بارت الدراسات العربية والإسلامية في =

وجاء في موسوعة " المنجد " أن " المستشرق : العالم باللغات والآداب و العلوم الشرقية ، والاسم الاستشراق " (١) .

وفى ضوء ما ذكر من التعريفات وغيرها مما يضاهيها ، يمكننا القول بأن السين والتاء إذا زيدتا في الكلمة قصد بهما الطلب ، مثل استغفر أى طلب الاستغفار ، واستنصح أى طلب النصيحة ، وكذا استسقى ونحوها ، وعليه فالاستشراق هو طلب علوم الشرق وآدابه ، واستشرق أى طلب وأراد تعلم ودراسة علوم الشرق وآدابه والمستشرقون هم قوم من غير الشرقيين أو هم الغربيون الذين تخصصوا في دراسة الشرق من كافة جوانبه ؛ علومه ، تاريخه ، أديانه، شعوبه ، لغاته وآدابه ... إلخ ، لأهداف مختلفة ، ودوافع شتى.

وإذا كانت تلك التعريفات السابقة وأمثالها تتسم بطابع العمومية في بيان مفهوم الاستشراق من حيث هو دراسة علوم الشرق وأديانه ولغاته ... الخ ؛ فإن هناك تعريفات أخرى تتسم بطابع التخصيص ، مثل تعريف مالك بن نبى ، إذ يقول : " إننا نعنى بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامى ، وعن الحضارة الإسلامية .

ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى " طبقات " على

= الجامعات الألمانية ص١١-١٢ .

(١) المنجد في اللغة والاعلام ص٣٨٤ . دار المشرق . بيروت ط الثالثة والثلاثون ١٩٩٢م .

صنفيين :

أ- من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل جربر دور بياك ، والقديس توماس الاكويني ، وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولد تسيهر .

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية ، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها (١) .

وكما جاء في تعريف الاستشراق فى الموسوعة الميسرة بأنه " هو ذلك التيار الفكرى الذى تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتى شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامى ، معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضارى بينهما " (٢) .

والذى يعنينا هنا هو هذا المفهوم الخاص للاستشراق .

هذا ومن خلال استقراء المراجع والدراسات التى تناولت هذا الموضوع ، يلاحظ أن المستشرق لابد أن يكون غربيا ، ولا فرق بين

---

(١) انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامى الحديث . مالك بن نبى ، ص٥ دار الإرشاد . بيروت . ط الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٣٣ . الندوة العالمية للشباب الاسلامي ، الرياض . ط الثانية ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م ، وانظر : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى د / محمود حمدى زقزوق ص ٢٤ دار المنار . القاهرة ط الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م

أن يكون نصرانيا أو يهوديا أو مسلما ، أو ملحدا ينكر الدين من أصله . وإن كان السواد الأعظم ممن ركب حركة الاستشراق من غير المسلمين ، المهم أنه عالم غربى يطلب دراسة علوم الشرق ، خاصة الشرق الإسلامى العربىّ ، لكن نجيب العقيقى صاحب الكتاب الموسوعة عن الاستشراق والمستشرقين قد شذّ عن هذا الإجماع ، حينما ذكر بعض الرهبان العرب والشرقيين ضمن المستشرقين ، وممن عدّهم الأب جورج قنواتى المولود في الاسكندرية من أصل سورى ، والأب هنرى عيروط المولود في القاهرة ، والأب نويّا المولود في الموصل بالعراق ، والأب سمير خليل المولود في القاهرة ، وغيرهم، إلى أن عدّ نفسه هو من المستشرقين ، مع أنه ولد ونشأ وتعلم في لبنان (١) .

وقد تعجب أحد الباحثين مما ذهب إليه العقيقى ، فقال :" لست أدرى كيف أدرج نجيب العقيقى نفسه في عداد المستشرقين ، مع أنه يتحدث عنهم بصيغة " الآخرين" فيقول مثلا : " لقد بلغ المستشرقون من تعاليم لغاتنا وحفظ تراثنا والكشف عن آثارنا وإحيائها بالنشر والترجمة والتصنيف ذلك المبلغ لمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر جميعا (كذا) لنا من قبل " وإذا كنا ندهش لصنيع العقيقى فإننا في الوقت نفسه لا نقلل من قيمة الجهد الكبير الذى بذله في إعداد كتابه القيم " المستشرقون " (٢) .

---

(١) راجع المستشرقون . نجيب العقيقى ٣/٢٧٠،٣١٤،٣١٥،٣١٦،٣١٨:٣٣٨، دار المعارف . مصر . ط الرابعة .

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية ص٨٥ هامش ، وانظر :المستشرقون ٣/٥٩٨ .

تاريخ الإستشراق :

يقول السباعى : لايعرف بالضبن هو أول غربىّ عُنى بالدراسات الشرقية ولا في أى وقت كان ذلك ، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها ، وتثقفوا في مدارسها ، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم ،وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم ، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات .

ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسى " جربرت " الذى انتُخب باباً لكنيسة روما عام ٩٩٩م بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده ، و" بطرس المحترم ١٠٩٢-١١٥٦ " و " جيرار دى كريمون ١١١٤-١١٨٧ " .

وبعدأن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم ، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة " بادوى " العربية ، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية - وهى لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ - واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب ، وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون (١) .

هذا وتتباين آراء العلماء والباحثين حول تحديد بداية الاستشراق ،

---

(١) الاستشراق والمستشرقون مالهم وماعليهم . د/ مصطفى السباعى ص ١٣-١٤ . المكتب الإسلامى . بيروت . ط الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

ويتجه أكثرها إلى تحديد فترة زمنية لبدايته ، وليس إلى تحديد سنة بعينها ، وهناك من يقول بأن بداية الاستشراق الأوربي كانت في القرن الثالث عشر الميلادي حيث صدر قرار مجمع فينا الكنسي عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية ، وهناك من يقول بأنه بدأ في القرن العاشر الميلادي ، بينما يذهب البعض إلى أنه بدأ في القرن الثاني عشر ، حيث تمت فيه ترجمة القرآن إلى اللاتينية لأول مرة عام ١١٤٣م بتوجيه الأب فيزابل ، وفي هذا القرن أيضاً ألف أول قاموس لاتيني عربي ، ويرى البعض أنه بدأ في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ([1]) .

وقد جعل نجيب العقيقي مؤلَّفه عن الاستشراق والمستشرقين ، والذي يقع في ثلاثة أجزاء ، سجلا لحركة الاستشراق على مدى ألف عام بدءاً من القرن العاشر ، حيث أخذ يرصد طلائع المستشرقين منذ ذلك التاريخ ، فذكر في مقدمتهم جربردي أورالياك ، الذي انتخب حبراً أعظم باسم " سلفستر الثاني (٩٩٩-١٠٠٣م) فكان أول بابا فرنسي ، ثم ثنَّى العقيقي بقسطنطين الإفريقي المتوفى عام ١٠٨٧م ، وبعده أوجودي سانتالا ، وغيرهم حتى الأسقف جويستنياني المولود عام ١٤٧٠م وليون الأفريقي (١٤٩٤-١٥٥٢) ([2]) .

---

(١) راجع هذه الآراء تفصيلا في فلسفة الاستشراق ص ٥٤-٥٩ ، الاستشراق والخلفية الفكرية ص٢٥ وما بعدها ، تاريخ الأدب العربي ص٥١٢-٥١٣ ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د/ محمد البهي ص٤٢٩ مكتبة وهبه . القاهرة ط العاشرة .

(٢) راجع : المستشرقون ١/١١٠ ومابعدها .

وهنــاك رأى يذهــب إليــه أحــد البــاحثين ، إذ يقــرر أن بدايــات الاستشراق تعود إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ، بعد مافتح العرب الأندلس عام٧١١ ، وذلك بسبب رغبة بعض العناصر من أهل الغرب فــى فهم عقليــة الفــاتحين العـرب وأفكــارهم واتجـاههم ، وســبب قوتهـم وتفوقهم ، ودستورهم وعقيدتهم وفلسفتهم وآدابهم ، ويعضـد هذا الراى بقوله :

وهناك أدلة قاطعة على أن الاستشــراق قد نشـأ حقـا فـى منتصـف القـرن الثـامن الميـلادى فىالأندلـس ، فقد وجد نـص مبكـر مـن القـرن التاسع للميلاد يتحدث فيه الفارو المسيحى القرطبى عما حدث مـع أهلـه فيقول : " إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العـرب وحكايــاتهم ، ويقبلــون علــى دراســة مذاهــب أهــل الديــن والفلاســفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوهـا ؛ وإنمـا لكـى يكتسبوا مـن ذلـك أسلوبا عربيا جميلا صحيحــا ، وأيـن تجد الآن واحـدا مـن غير رجـال الدين يقرأ الشروح الدينيــة التــى كتبـت علــى الأنــاجيل المقدســة ؟ ومـن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثـار الأنبيـاء والرسل ؟ ياللمسرة إن الموهوبين من شـبان النصـارى لايعرفـون اليـوم إلالغــة العـرب وآدابهـا ، ويؤمنـون بهـا ويقبلـون عليهـا فـى نهـم ، وهـم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب ، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فـى ازدراء بأنهـا غيـر جديـرة بـأن يصرفـوا إليهـا انتبـاههم ... لقــد أُنسيــي النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجدبين الألـف منهم واحـداً يسـتطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما مـن الخطـأ ، فأمـا عـن الكتابـة فىلغـة

العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربى مايفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا ([١]) "

ويقول المؤرخ الانجليزى ملر فى كتابه فلسفة التاريخ : إن مدارس العرب فى أسبانيا كانت هى مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعة والرياضية وما وراء الطبيعة ، وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة إلى أوربا ، وممن ورد تلك المناهل الراهب جربرت الفرنسى ،كذلك تخرج على علماء قرطبة (شانجة) ملك ليون وأستوريا ، وأولع بعض علماء إيطاليا بالعربية ، وعدوها لغة الأدب العالى ، وأوصى قومه الراهب روجر بيكون الانجليزى بتعلم العربية ، وقال : " إن الله يؤتى الحكمة من يشاء ، ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين ، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب " ([٢])

ويرى برناردلويس أن العلماء أخطأوا حينما ظلوا يعتقدون حقبة طويلة من الزمن أن أول اتصال جدَّيّ بين الثقافة الإسلامية وثقافة أوربا قد حدث نتيجة للحروب الصليبية ([٣]) ، ثم يقرر أن حركة الفكر

---

(١) فلسفة الاستشراق ص٦٧-٦٨ نقلا عن تاريخ الفكر الأندلسي . جونثالث بالنثيا. ترجمة حسين مؤنس ص ٤٨٥-٤٨٦ ، المستشرقون والإسلام زكريا هاشم زكريا ص١٧. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .القاهرة ، ١٣٨٥هـ١٩٦٥م نقلا عن المؤرخ " دوزى " فى كتابه عن " الإسلام الأندلسى " .

(٢) تاريخ الأدب العربى ص٥١٣ بتلخيص .

(٣) الحروب الصليبية هى سلسلة حروب شنها المسيحيون الأوربيون بين القرنين ١١، ١٤ لاستعادة الاراضى المقدسة وبخاصة القدس من المسلمين ، وقد كان دافعها المباشر هو=

والعلوم العربية وصلت إلى الغرب عامة وبريطانيا خاصة عن طريق آخر لا عن طريق الحروب المذكورة ، ويستند فى رأيه هذا على التاريخ ووقائعه ، فيذهب إلى أن أوربا شربت من مناهل العلوم العربية التى كانت تتدفق فى الأندلس ، إذ أسس العرب فى أسبانيا وصقلية مدنية زاهرة أرقى بكثير من أية مدنية معاصرة لها فى ذلك الوقت فى البلاد المسيحية ، وهى المدنية التى خلفت آثاراً فى المدنيات المسيحية المعاصرة لها ، حتى أنه بعد أن استعاد المسيحيون سيادتهم على تلك البلاد ، ظلت العلوم العربية مزدهرة مدة من الزمن ، وكان من الملوك المسيحيين من يتكلم العربية ويوازى علماء العرب (١) .

= الموعظة التى ألقاها البابا أربان الثانى فى مجمع اكلرمونت ١٠٩٥م ، وحث فيها العالم المسيحى على الحرب لتخليص القبر المقدس من المسلمين ، ووعد المحاربين بأن تكون رحلتهم إلى الشرق بمثابة غفران كامل لذنوبهم ، كما وعدهم بهدنة عامة تحمى بيوتهم خلال غيبتهم ، وقد أخذ الصليبيون اسمهم من الصلبان التى وزعت عليهم خلال الاجتماع. وكانت تسع حملات شنها الصليبيون ، بدأت الاولى عام ١٠٩٥م بقيادة ولتر المفلس وبطرس الناسك وآخرين غيرهما ، والتاسعة كانت عام ١٢٧١ : ١٢٧٢م ، وفى سنة ١٢٩١م سقطت عكا آخر معقل للصليبيين فى الأراضى المقدسة ، وقد أطلق اصطلاح حملة صليبية على حملات أخرى باركها البابا استهدفت الهراطقة والوثنيين ، كما أطلق الاصطلاح نفسه- فى شئ من التجوز - على حملات وجّهت فى القرنين ١٥، ١٦ ضد الاتراك ، وقد ترك هذا الصراع المرير الطويل بين أوربا والعالم الإسلامى ذكرى مؤلمة فى نفوس الاوربيين والمسلمين . الموسوعة العربية الميسرة . بإشراف محمد شفيق غربال ١/٧٠٩-٧١٠ باختصار وتصرف . دار إحياء التراث العربى . صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م .

(١) فلسفة الاستشراق ص٥٧-٥٨ نقلا عن تاريخ اهتمام الانجليز بالعلوم العربية. برنارد لويس ص٣-٤ .

وإذا كانت الآراء حول نشأة الاستشراق وبدايته محل أخذ وردّ ، أو قبول ورفض ، فإنه يمكننا أن نقرر مطمئنين أن ظهور الاستشراق لم يتأخر عن القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) إذ كان النشاط العلميّ للمسلمين فى الأندلس إبّان فتحتهم لها (١) مصدر ولادة الاستشراق ، وسبب انطلاقته .

وهكذا نرى أن الاستشراق قد ظهر إلى الوجود منذ ذلك التاريخ القديم ، ومع هذا فإن المصطلح نفسه لم يظهر فى أوربا إلا فى القرن السابع عشر الميلادى ، كما يتضح هذا من كتابات الباحثين المعنيين .

يقول العالم الغربى (آ.آربرى) : وأول استعمال رأيناه لكلمة (مستشرق) رأيناه سنة ١٦٣٠م حيث أطلق على أحدأعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، وفى سنة ١٦٩١م وجدنا أنتونى وود يصف صمونيل كلارك بأنه (استشراقي نابه) يعنى بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية (٢) .

---

(١) ابتدأ فتح المسلمين لبلاد الاندلس فى شهر شعبان سنة ٩٢هـ (٧١١م) بقيادة طارق بن زياد .تاريخ الإسلام السياسى والدينى والاجتماعى . د/ حسن ابراهيم حسن ٣١٣/١ بتصرف . دار الأندلس بيروت ط السابعة ١٩٦٤م . وظلت الأندلس تحت حكم العرب حتى القرن ١٣ حين استرد ملوك قشتالة معظمها ولم تبق إلا مملكة غرناطة العربية التى سقطت فى يد الملوك الكاثوليك (١٤٩٢م) وكانت الفترة العربية العهد الذهبى للأندلس وكانت المدن العربية فيها قرطبة وإشبيلية وغرناطة مراكز مشهورة للثقافة والعلم والفن . الموسوعة العربية الميسرة ٢٤١/١-٢٤٢ باختصار .

(٢) فلسفة الاستشراق ص٢٢ نقلا عن : المستشرقون البريطانيون ، آربرى ص ٧-٨ .

بينما يقرر المستشرق مكسيم رودنسون فى معرض حديثه عن تاريخ الإستشراق قائلا:

" وقد ظهرت كلمة (مستشرق) فى إنجلترا حوالى عام ١٧٧٩ ، وفى فرنسا عام ١٧٩٩ ، وأدرجت كلمة (الاستشراق) فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ . وأخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد " (١) .

ولكن تأخر ظهور مصطلح " الاستشراق " حتى التاريخ المشار إليه لايعنى أن الاستشراق لم يكن موجوداً من قبل ، بل على العكس من ذلك كما أشرنا ، أما ظهور المصطلح فإنه كما يقول أحد الباحثين " لايعنى شيئاً أكثر من إقرار أمر واقع ، وإطلاق وصف على الدراسات التى كانت قائمة بالفعل قبل ذلك بقرون عديدة " (٢).

ونحن نجد فى حياتنا مصطلحات غير قديمة ، ولكن مدلولها موغل فى القدم ، مثل مصطلح " الغزو الفكرى " ، الذى " يقصد به محاربة الخصم ومحاولة القضاء عليه بغير الطرق العسكرية " (٣) ، فإن

---

(١) تراث الإسلام . تصنيف جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث . ترجمة د/ محمد زهير السمهورى وآخرين جـ ١ ص ٧٣ . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ط الثالثة عدد المحرم ١٤١٩هـ مايو ١٩٩٨م .وانظر فلسفة الاستشراق ص٢٤ ، الاستشراق والخلفية الفكرية ص٢٧ .

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية ص٢٧ .

(٣) الغزو الفكرى فى وسائل ثقافة الطفل المسلم . للمؤلف ص٣٢ ، رسالة العالمية (الدكتوراه) مخطوطة بكلية أصول الدين بالقاهرة ١٤١٦هـ١٩٩٥م.

توصيف هذا الضرب من الحروب وإطلاق مصطلح " الغزو الفكرى " عليه ؛ لايعنى أن الحرب الفكرية لم تكن موجودة قبل إطلاق ذلك المصطلح ، بل هو تقرير وتوصيف لأمر واقع منذ عشرات القرون .

على أن الاستشراق فى بداية نشوئه ، وظهور أمره ، قد قام على أكتاف رجال الدين النصارى ، كما يتبين هذا من استقراء تاريخ الاستشراق ، حيث " كان الرهبان فى طليعة المستشرقين " ([1]) ، وقد ذكر منهم العقيقى عدداً غير قليل ، ومن هؤلاء : جربر أورالياك (٩٣٨-١٠٠٣) الذى انتخب بعد ذلك حبراً أعظم باسم سلفستر الثانى ، وبطرس المكرم (١٠٩٤-١١٥٦) الذى عاد إلى ديره فى فرنسا بعد رحلة إلى الأندلس (١١٤١-١١٤٣) وطفق يصنف الكتب فى الرد على علماء الجدل المسلمين وشجب اليهود ،والأسقف أوف تشستر (اشتهر من عام ١١٤١إلى١١٤٨) والذى اشترك هو وزميله هرمان الدلماطى (المتوفى ١١٧٢) فى ترجمة القرآن باللاتينية عام (١١٤٣) بإيعاز من بطرس المكرم ، ومنهم توما الإكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤) وأستاذه ألبر الكبير (١٢٠٦-١٢٨٠) ورايموند ومارتينى (١٢٣٠-١٢٨٤) الذى ألف كتاب خنجر الإيمان ، وجعله فى الرد على المسلمين واليهود ، واعتمد فيه على حجج الغزالى وغيره ممن تصدوا لمجادلة المشائين ، ومنهم المبشّر رايموند ولوليو (١٢٣٥-١٣١٤)([2]) .

وقد كان احتكاك النصارى بالمسلمين فى الأندلس ، ثم فى غمار

---

(١) المستشرقون ٢٤٩/٣ .

(٢) السابق ١١٠/١-١٢٤ .

الحروب الصليبية التى خرج الغرب النصرانى منها يجر أذيال الخيبة والهزيمة ، من الأمور التى ألهبت حماس الغرب لدراسة الإسلام بروح عدائية حقود ، فقدت اتزانها واختلت موازينها فى نظرتها وحديثها عن الإسلام والمسلمين .

وقد جد الصلبيون فى ذلك الوقت المبكر ، ونشطوا فى الهجوم على الإسلام وأهله ، والانتقاص من قدره ، والحط من قيمة المؤمنين به ، وتولى اللاهوتيون النصارى كبر حملات الهجوم ، وكان لهم فى نسج المفتريات والأباطيل صولات وجولات . ولم يكن لهم من مصدر لتلك المفتريات إلا الخيال والأساطير ، التى لا تستند على أدنى شئ من الحقيقة أو الواقع .

يقول المستشرقين جوستاف إ.فون جرونيباوم فى معرض حديثه عن صورة الإسلام فى الفكر المسيحى فى العالم الوسيط :

" وفضلا عما أظهره الغرب من انكار النبوة على ذلك النبى الكريم ، كان أدب الغرب فى القرون الوسطى تستهويه فكرة محمد الرب (كذا !! .) . والحق أن هذه الفكرة لم تنبذ نبذاً تاما قبل منتصف القرن السابع عشر ، عندما كان الكتاب المسرحيون لايزالون يمثلون المسلمين أحيانا فى صورة من يصلون ويتعبدون لربهم محمد " .

وترى أغنية رولان (١) المسلمين وثنيين أقحاحا يعبدون

---

(١) هى أغنية تمثل فرسان شرلمان ، وهم يحطمون أصنام المسلمين (حاضر العالم الإسلامى ٨٤/١ من حواشى أرسلان ، نقلا عن درمنجهم فى كتابه حياة محمد) ، =

(مجموعة من الآلهة) مركبة تركيبا عجيبا من ما هو مت (كذا !! ..) وأبولون وجيوبين وترافاجانت . وفي مواضع أخرى يُضم الكارون (القرآن) إلى مجموعة الآلهة . وهم يرون أن لهذه الآلهة ، وبخاصة محمد ، تماثيل مصنوعة من الذهب والفضة ، وهي تعبد في مناسك مفصلة ، وتستنزل معونتها قبل القتال ، فإذا حلت بهم الهزيمة لعنوا الآلهة وأهانوها وجرروها في الثرى ، بل لقد يحطمونها . والهزيمة هي المصير العادي لكل عربي " (١) .

وهكذا أطلق هؤلاء الكتاب العنان لجهالاتهم وخيالاتهم المريضة ، وافتروا على الله الكذب ، ولم يفكروا يوما في الانحياز الى الأمانة والموضوعية ، بل أعربوا بألسنتهم عن أحقادهم الكامنة . التي تسيطر عليهم عند دراسة الإسلام .

وهذا واحد من أصحاب ذلك الأدب المسف في العصور الوسطى وهو " غيلبرت دونوجنت " اعترف بأنه لايوجد لديه مصادر مكتوبة ،

= ورولان بطل الأنشودة المعروفة باسمه ، وهي إحدى المقطوعات التي تتغنى بشرلمان في القرن ١١ ، وكان رولان شخصية حقيقية ، عمل ضابطا في جيش شارلمان الذي توجه لغزو أسبانيا ٧٧٨ ، وقتل في معركة وقعت عند ممر في جبال البرانس ، قتله سكان المنطقة ، ولكن الأسطورة تنقل المعركة إلى أرض أخرى ، وتجعل الأعداء هم العرب . وتبالغ في الحادث وفي شجاعة البطل ، والملحمة من أحب الملاحم في العصور الوسطى إلى نفوس سامعيها ، ويتطور البطل ليتألف منه أبطال آخرون لملاحم أخرى على شاكلة الملحمة المشهورة ، وقد درست كثيراً ، وترجمت إلى لغات عدة . (الموسوعة العربية الميسرة ١/٨٩٧) .

(١) حضارة الإسلام . جوستاف إ . فون جرونيباوم . ترجمة عبد العزيز توفيق ص٧٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٩٧م .

وأشار فقط إلى آراء العامة ، وانه لا يوجد لديه أى وسيلة للتمييزيين الخطأ والصواب . ثم قال فى الختام بسذاجة : " لا جناح على الإنسان إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء " (١)

هكذا يبرر هذا الخبيث كتاباته غير العلمية عن الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم أخذت مسيرة الاستشراق تتواصل عبر القرون والأجيال ، تهيمن عليه تلك الروح العدائية البغيضة للإسلام وأهله ، غير أنها كانت تخف حدتها لدى بعض المستشرقين ، ويخفتُ صوتها فى بعض الأحيان ، لكنها لاتلبث تطل برأسها معلنة وجودها ، ولم يسلم منها الا طائفة قليلة ، سوف تأتى الإشارة إلى بعضهم لاحقا ، ولم يفت اليهود أن يلحقوا بقطار المسيرة الاستشراقية ، فيتعمق بهم ويتأصل تيار العداء للإسلام ، ذلك التيار الفاحش الذى لايزال فاعلا ، وممتداً أفقياً ورأسياً .

وأخذ اهتمام الغربيين بالاستشراق يتزايد عاما بعد عام ، فينشئون الكراسي الخاصة به والمعاهد فى جامعات أوربا ، ويؤسسون المكتبات ، ويشجعون الأفراد لولوج ميدانه ، ويغدقون عليهم المنح والأموال ... إلخ " حتى جاء القرن الثامن عشر – وهو العصر الذى بدأ فيه الغرب فى استعمار العالم الإسلامى ، والاستيلاء على ممتلكاته – فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون فى الاستشراق ، ويصدرون لذلك المجلات فى جميع الممالك الغربية ، ويغيرون على

---

(١) تراث الإسلام جـ١ ص٣٧-٣٨ ، وانظر حضارة الإسلام ص٦٩ وقد سماه " جيبرت النوجنتى " بدلا من " غيليبرت دونوجنت " . وهو متوفى سنه ١١٢٤ .

المخطوطات العربية في البلاد العربية والاسلامية ، فيشترونها من أصحابها ، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى ، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم ، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل الى مكتبات أوربا ، وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد ومازال هذا العدد يتزايد حتى اليوم .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣ ، وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته ، ومانزال تعقد حتى هذه الأيام " (١) .

ثم إن العناية بالدراسات الإسلامية – على وجه الخصوص – قد أخذت مساحة بارزة في إطار الاستشراق ، وتبلور مفهوم خاص للاستشراق يتمثل في الدراسات المختلفة عن الإسلام والمسلمين خاصة .

" وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصا قائما بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة . وكان كثير من علماء الإسلاميات والعربية في ذلك الوقت – مثل : نولدكه ، وجولدتسيهر ، وفلهاوزن – مشهورين في الوقت نفسه بوصفهم علماء في الساميات على وجه العموم أو متخصصين في الدراسات العبرية أو

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ص١٤–١٥ .

في دراسة الكتاب المقدس " (١) .

وهكذا نشأ الاستشراق وتطور ، حتى صار حركة ضخمة ، لا يستهان بها .

وركب تيارها منذ ابتدأت مسيرتها إلى يوم الناس هذا خلق كثير ، كانت لهم دوافع وأغراض مختلفة ، جديرة بأن نميط عنها اللثام ، ونجليَ حقيقتها ، وذلك فى الفصل التالى إن شاء الله .

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية . ص٥٠ نقلا عن رودى بارت ص١٧ .

الفصل الثانى

دوافع المستشرقين

ولقد كان للحركة الاستشراقية دوافع وأهداف ، وخاصة ما يتعلق منها بالدراسات الإسلامية ، وجدير بالذكر أن من الباحثين من يفرط فى الثناء على المستشرقين عند الحديث عن دوافعهم ، ويذهب إلى أن الدافع العلمى ، كان وراء نشأة الاستشراق ، وأن الرغبة فى خدمة العلم ، كانت الحافز للدراسات الاستشراقية ، بينما يفرط البعض فى التحامل على المستشرقين ، مجرِّداً إياهم من كل قصد نبيل ، " وفى الحق أن كلاً من الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التى سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال ، وما تطرقوا إليه من أبحاث ، ونحن من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع أعدائهم " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى (١) " (٢) .

ونحن إذ نقرر هذا فإنه يؤسفنا القول بأنه إن كان هناك من قصد نبيل أو دافع برئ للمستشرقين ؛ فإنه يبدو ضئيلا جدا ، أو تائها فى محيط الدوافع المشبوهة ، أو الأهداف المريبة ، والمقاصد غير النزيهة ، كما يتضح هذا من إنتاج المستشرقين وأعمالهم ، وهذا ضوء على دوافعهم فيما يلى :

---

(١) سورة المائدة : ٨

(٢) الاستشراق والمستشرقون د/ مصطفى السباعى ص١٣ .

أولا – الدافع الدينى :

ولقد لفت نظر النصارى منذ قرون طويلة سرعة انتشار الإسلام ، وقدرته الفائقة على التوسع والتغلب على خصومه ، وخاصة عندما غزا الإسلام الصليبية وانتصر عليها فى عقردارها وأقام حضارة ودولة فى الأندلس ، ثم حينما اشتبكت الصليبية مع الإسلام فى الشرق " الحروب الصليبية " وتراجعت منكسرة مهزومة تجر أذيال الخيبة ، وبالاضافه الى هذا فان الإسلام يهاجم معتقدات النصارى ويفندها ، ويقرر زيفها وبطلانها بالأدلة الدامغة مثل التثليث وبنوة المسيح والصلب والفداء ، فأدركوا أن الإسلام يمثل تهديداً حقيقياً للنصرانية التى غزاها فى عقر دارها ، وأقام سدًا منيعا فى وجه انتشارها ، وهبوا يكتبون عن الإسلام بروح متعصبة وقلوب حاقدة ، وقامت طلائع المستشرقين تعمل فى دأب على تشويه صورة الإسلام لدى الأوربيين حتى لا يعتنقوه ، ولم تترك نقيصة ولا رذيلة إلا وألصقتها بالإسلام ورسوله وتاريخه ورجاله ، من منطلق كراهيتهم للإسلام واعتقادهم بأنه دين معادٍ للنصرانية .

وقد اعترف المستشرقون المعاصرون بذلك الأمر ، فقال رودى بارت :

" حقيقة إن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع ، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين

المعادي للنصرانية لايمكن أن يكون فيه خير ، هكذا كان الناس لايولون تصديقهم إلا لتلك المعلومات التى تتفق مع هذا الرأى المتخذ من قبل ، وكانوا يتلقفون بنهم كل الأخبار التى تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام " (١) .

وللأسف الشديد فإن هذه الروح العدائية في الكتابة عن الإسلام قد ظلت مصاحبة للإستشراق طوال مراحله ، وبقيت حتى الآن أحقادا كامنة لم تطفئها الأيام ، تفرز سموما وأفكاراً عدائية تخريبية ضد الإسلام والمسلمين .

وقد سار الدافع الدينى للاستشراق في اتجاه آخر إبان ظهور ما سُمَّي بحركة الإصلاح الديني (٢) المسيحي ، حيث " شعر المسيحيون :

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ص ٣٢-٣٣ نقلا عن رودي بارت ٩ ، ١٠ .

(٢) حركة الإصلاح الديني هي حركة قامت بين النصارى كرد فعل لتسلط الكنيسة الكاثوليكية ، وكان من أبرزها الحركة الإصلاحية ضد تعاليم البابوية التى قام بها حنا هس (ولد ١٣٦٩م) الذي تأثر كثيرا بأفكار أستاذه " حنا وكلف " (ولد عام ١٣٢٤ م) بل إنه إلى هذين المصلحين ترجع حركة الإصلاح الكبرى " اللوثرية " التى قامت ضد الكنيسة الغربية فيما بعد ، وتلخصت مبادئ " وكلف " في محاربته للكنيسة في أملاكها وتعاليمها ، وإنكاره التحول في العشاء الرباني وأن الخبز والخمر في هذا العشاء يبقي بعينه ، وأنكر مايدعيه رجال الكنيسة من قدسية خاصة ، وأنكر صكوك الغفران ، وكذلك نيابة البابا للمسيح ، ثم جاءت الحركة الإصلاحية الكبرى على يد " مارتن لوثر " في بداية القرن السادس عشر ، والتى كان على رأس أسبابها بيع صكوك الغفران ، وكان من نتيجتها ظهور مذهب ثالث بين مذاهب الكنيسة المسيحية هو مذهب " البروتستانت " . المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية . د/ محمد رجب الشتيوى ص٤٠٥ ومابعدها بتصرف ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧م . وجدير بالذكر أن التاريخ قد سجل ظهور حركات =

بروستانت وكاثوليك ، بحاجات ضاغطة لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التى تمخضت عنها حركة الإصلاح ، ومن هنا اتجهوا إلى دراسة العبرانية ، وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى ، وخاصة ماكان منها متعلقا بالجانب اللغوي ، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير إسلامية وغير عربية " (١) .

" وعندما قامت حركة " لوثر " (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) بالثورة على الفاتيكان ، بدأ دعوته بالدعوة إلى دراسة التوراة في لغتها الأولى ، وهي العبرية ، ولما كانت العلاقة بين العبرية وبين العربية وثيقة ، وكانت العبرية حينئذ لغة تائهة المعالم ، وغير مضبوطة ، فإن الاعتماد على اللغة العربية في التعرف على الكلمات العبرية كان أمرا ضروريا .

ولهذا نشط في ألمانيا نشاط جم لدراسة العبرية والعربية من أجل بعث الكتاب المقدس في صورة صادقة جديدة بعيدة عن التفسيرات الخرافية التى تتبناها الكنيسة " (٢) .

= إصلاحية ضد الكنيسة منذ القرن العاشر في أنحاء متفرقة من العالم الغربي النصراني ، راجع بهذا الخصوص : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . د/ رؤوف شلبى ص ٢٦٧ وما بعدها دار البشير . طنطا .

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ص٤٣٠ وفيه المراجع التى أخذ عنها .

(٢) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري د/ عبد المتعال محمد الجبري . ص٨٢ =

وفي غمار تلك الحركات الإصلاحية التى تفجرت ينابيعها وتدفق عبر القرون ضد الكنيسة تيارها ، تتحدى سلطانها ، وتهتك أستارها ، وتكشف سوءاتها ، برز دافع ديني لدراسة الإسلام ، وتعرّف المزيد عنه لعرض " نقائصه " كما يتخيلون هم - ولتشويه صورته ، والإكثار من الحديث عن مساوئه " المزعومة " حتى تنصرف جموع النصارى في الغرب عن توجيه النقد لتصرفات رجال الدين تأثرا بما يشيعه أرباب حركات الإصلاح المتتابعة خلال الأعصار ، ولينصرفوا كذلك عن التنبه لما في دينهم من تحريفات وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وحماية الكنيسة من الأخطار التى تواجهها ، وتزويدهم بمعلومات يمكن أن يوظفوها ويتحصنوا بها ضد الإسلام .

وهذا واحد كان " راعيا لأول ترجمة لاتينية للقرآن ، كما كان هو نفسه صاحب حملة جدلية طائشة ضد الإسلام " (١) . وهو بطرس الموقر حيث كان يعتبر الإسلام هرطقة نصرانية ، يبرر جهوده في سبيل إيجاد تلك الترجمة التى ظهرت عام ١١٤٣م فيقول :

" إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة لأن العدو ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السلاح ، فإني أرد بأن فى بلاد ملك عظيم تكون بعض الأشياء للدفاع ، وبعضها للزينة ، وبعضها لكليهما معا.. . إلى أن قال : وكذلك الحال مع هذا العمل فإذا لم يكن بالإمكان تنصير

= مكتبة وهبه . القاهرة . ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥ .

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية بقلم أ.ل. طيباوي . ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث ص٤٧٦ .

المسلمين به ، فمن حق العالم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء في الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة " ([1]) .

وفي ذات الوقت خشى النصارى في الغرب من وصول الصورة الحقيقة للإسلام إلى جماهيرهم النصرانية ، حتى لاتعتنقه : إذ الإسلام دين الفطرة ، ولو أتيح لغير المسلمين التعرف عليه ودراسته في جو من الإتزان والانصاف ؛ لما ترددوا في الإيمان والرضا به دينا ، يعرف هذه الحقيقة الأحبار والرهبان ، فيندفعون كالمجانين يشوهون صورة الاسلام العظيم في مجافاة بالغة للعقل والمنطق ، والمعايير الأخلاقية النبيلة .

وقد سبق أن أوردنا ما اعترف به جيبير النوجنتى من أنه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أيه مصادر مكتوبة ، وأشار فقط إلى آراء العامة وأنه لايوجد لديه وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ، وأنه قال مبررا مفترياته عن الإسلام ونبيه : " لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء " ([2]) .

" ومما يذكر أن المسلمين لما فتحوا مدينة القسطنطينية – عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وفيها مركز البابوية للكنائس الشرقية – هب رجال الكنيسة وقد هالهم الخطب العظيم ، فأخذوا في الإفتراء والتشنيع

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ص٣١-٣٢ نقلا عن : ساذرن ، نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى ص٥٦-٥٧ ، وانظر تراث الإسلام ، تصنيف شاخت ، وبوزورث ص٤٠-٤١ .

(٢) انظر ص ٢٤ .

على الإسلام وتشويه أحكامه الإلهية العادلة ، وكان الدافع لهم في هذه الحملة الحيلولة بين رعاياهم الذين أقبلوا على الدخول في دين الله أفواجا ، ليصدوهم عن الإسلام الذي يبيح تعدد الزوجات والطلاق " (١) .

وقد برز الدافع الديني للاستشراق أكثر ما برز في اتجاه خطير ، ألا وهو التبشير ، حيث رغب النصارى في تنصير المسلمين ، والقيام بأعمال وأنشطة تبشيرية بينهم ، وبذل كل ما في وسعهم لحمل المسلمين على ترك الإسلام ، أو ترك تعاليمه ، والتخلي عن اتخاذها منهج حياة لهم ، ودستوراً يحكم جميع شئونهم .

وبهذا الدافع كان الإقبال على تعلم اللغة العربية وآدابها ، ليتم لهم قراءة العلوم الإسلامية ، والتعرف على مبادئ الإسلام ومصادره وشعوبه ، ووضع الخطط والتصورات المناسبة لتشكيك المسلمين في دينهم ، وتشويه صورته أمامهم حتى يسهل عليهم القيام بأعمال التبشير بينهم .

ومن أظهر الدلائل على وجود هذا الدافع التبشيري للدراسات الاستشراقية ما " جاء في تقرير المراجع الأكاديمية المسئولة في جامعة كمبردج بالنسبة لإنشاء كرسي اللغة العربية فيها ، في خطاب مؤرخ في ٩ مايو ١٦٣٦م إلى مؤسسي هذا الكرسي : ونحن ندرك أننا لانهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي د/ على محمد جريشه ، محمد شريف الزيبق ص ٢٠ دار الاعتصام القاهرة .

المعرفة للنور بدلا من احتباسه في نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعلمها ، ولكننا نهدف أيضا إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة .. والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات " (١) .

فهذا الخطاب - كما هو واضح - ينص صراحة على خدمة هدفين : أحدهما تجارى والآخر تبشيرى .

وقد ذكرت المصادر التاريخية أن مجمع فيينا الكنسى قرر سنة ١٣١٢م إدخال العربية مع لغات أخرى فى جامعات : باريس ، بولونيا، أكسفورد ، سلمنكا ، وكان الغرض من هذا القرار تبشيريا خالصا وكنسيا لا علميا (٢) .

وقد كان ذلك القرار نتيجة لمقترحات المبشرين إذ ذاك ، وعلى رأسهم " رامون لل القطلونى " المبشر المسيحى القديم ، وهو أشهر المبشرين فى عصره ، وفى هذا يقول المستشرق " جوستاف إ. فون جرونيباوم " :

" فإنه [يقصد لل] لما مثل أمام مجلس فيين (١٣١١-١٣١٢)، إقترح أموراً ثلاثة للمحافظة على شرف العقيدة الكاثوليكية المقدسة وتوقيرها ونشرها : أولها ، أنه ينبغى أن تبنى أماكن معينة يتوفر فيها

---

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث ص ٤٧٧

(٢) السابق ٤٧٦ هامش بتصرف .

أشخاص بأعيانهم من القانتين ذوى الذكاء الرفيع على دراسة لغات شتى بغية التبشير بالانجيل المقدس للشعوب كافة ، وثانيها ؛ أنه ينبغى أن يتكون من جميع الفرسان المسيحيين نظام خاص ، ينبغى أن يدأب جاهداً لفتح الأراضى المقدسة ؛ وثالثها ، أنه معارضة لرأى ابن رشد الذى حاول فى أشياء كثيرة أن يعارض العقيدة الكاثوليكية . ينبغى أن يؤلف رجال العلم كتبا تفند الأراء المذكورة ، وتبهت كل من يرى ذلك الرأى .

وكانت الثمرة المباشرة لمقترحه الأول ، هى إصدار المجلس قرارا بإنشاء خمس كليات لتعليم العبرية والعربية والكلدانية فى روما وبولونيا وباريس وأكسفورد وسلامنكا " (١) .

وقد اعترف " يوهان فيوك " بالدافع الدينى التبشيرى فى صراحه فقال : إن الاستشراق لم يكن عملا علميا محضا ، بل إن المراد منه هو الرد على الإسلام ، والتبشير بالنصرانية بين المسلمين ، وذلك بتراجم عربية للانجيل ، وذلك فى كتابه " تاريخ الاستشراق والمستشرقين فى أوربا بدءاً من القرن التاسع عشر " وقد نشره سنة ١٩٤٣م ، ثم وضع رسالة أخرى عن الدراسات العربية فى أوربا سنة ١٩٥٥م لتأكيد هذا المعنى (٢) .

وسجل الحركة الاستشراقية حافل بالكثيرين من المبشرين ورجال

---

(١) حضارة الإسلام ص٧٤ . نقلا عن : حياة رامون لل لكاتب مجهول حوالى ١٣١١. ص٤٣ .

(٢) الاستشراق وجه للاستعمار الفكرى د/ عبد المتعال الجبرى ص١٦-١٧ بتصرف .

الدين ، الذى لبسوا أردية العلم فوق مسموح الكهان ، وراحوا يشتغلون بالاستشراق لخدمة التبشير . حيث سودوا آلاف الصحائف والمجلدات عرضا للإسلام ، وانتقاصا منه وطعنا فيه ، فكانوا بمثابة المصنع الذى يصنع الشبهات ويقذف بالدراسات المناوئة للإسلام والمسلمين ، وكانت الحركة التبشيرية تقوم بدور التسويق والترويج لهذه الدراسات وتوظيفها بما يخدم أغراضهم " ومنذ البداية كان هناك تجاوب فى القصد بين المستشرق الأكاديمى والمبشر الإنجيلي " (١) .

" ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية ، أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التى يعدونها نصرانية لأن أمم الغرب تدين بالنصرانية) ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية الإسلامية ، وبالتالى إلى إبراز نواحى النشاط الثقافى فى الغرب وتفضليها على أمثالها فى تاريخ العرب والإسلام ، وما غايتهم من ذلك الا خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدينة المادية الغربية " (٢) .

وقد مر بنا منذ قليل أن الاستشراق قام فى أول أمره على أكتاف

---

(١) المستشرقون الناطون بالانجليزية ص ٤٧٩ .

(٢) التبشير والاستعمار فى البلاد العربية د/ مصطفى خالدى ، د/ عمر فروخ ص٢٤-٢٥ . المكتبة العصرية . صيدا بيروت .ط ١٩٨٦م .

الرهبان والقسس ، وذكرنا بعض الأسماء ، ويضاف إليها هنا المبشر والمستشرق صمويل زويمر ، وكذلك ماسنيون ، ولافيجري ، وك.بيكنز ، ود.م.دونالدسون ، وك.يانج ، وكينيت كراج ، وريمون لول ، وفرنسيس الأسيزى ول.شاتليه وألفرد جيوم وغيرهم كثيرون ، يضيق المقام هنا عن الإلمام بهم .

ولاننسى ونحن نتحدث عن الدافع الدينى للاستشراق هنا المستشرقين اليهود ، خاصة ، فإنهم كما ذكر أحد الباحثين " أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية – وهى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام : بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الإسلام الأول ، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولا ثم دولة ثانيا . هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعا مكتوبا يؤيدها غير أن الظروف العامة ، والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى " (١) .

والحقيقة إن عداوة اليهود للإسلام لاتحتاج إلى كبير جهد فى التدليل عليها ، ويكفى أن الله تعالى قال : " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا " (٢) .

" ولما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يدعو إلى الإسلام كان على رأس من ناصبه العداء اليهود ، فقادوا محاولات

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص٤٣١ .

(٢) سورة المائدة : ٨٢ .

التشكيك والتشويه وتزييف الحقائق ، وكانوا يمدون الكفار الوثنيين بالشبهات التى ينثرونها فى وجه الدعوة الإسلامية ، واشتعلت بسببهم نار الحرب الفكرية ، وكانوا بمثابة الشيطان فى عصابة المجرمين "(١).

ولقد ظل اليهود خلال أدوار التاريخ المتعاقبة يقذفون بالأفكار المعادية للإسلام ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، حتى عصرنا الحاضر الذى شهد نشاطا يهوديا محموما فى هذا المجال ، فقاموا على كل صعيد ، وركبوا كل سبيل ، وجندوا كل شئ من أجل نشر الفكر المعادى لبنيِ الإنسان بعامة ، والإسلام والمسلمين بخاصة (٢) .

وقد برز فى عالم الاستشراق رموز كثيرة من اليهود الذين كانت دراساتهم طافحة بالتحامل والتعصب ضد الإسلام. وصارت - للأسف- مراجع للباحثين فى الإسلام من الغربيين ، بل ولبعض المسلمين الذين يدرسون فى الغرب ، من هؤلاء المستشرقين اليهود : جولدزيهر ، ويوسف شاخت ، وغ.فون جرونباوم ، وولهم رودلف ، وغيرهم .

ثانيا - الدافع العلمي :

وهذا الدافع قد تمثل فى اتجاهين على النحو التالى :

الأول : دافع علمى يقصد به دراسة علوم الشرق الإسلامى فى مختلف التخصصات العلمية ، ونقلها إلى الغرب لتنهض أوربا وتتقدم

---

(١) الغزو الفكري فى وسائل ثقافة الطفل المسلم للمؤلف ص٥٦ .

(٢) السابق ص ٥٨-٥٩ .

نحو الرقيّ الحضاريّ الذى سبقها بـه المسلمون بمسافات شاسعة إبان إزدهار الحضارة الإسلامية ، حيث كان الغرب يعيش فى ظلام دامس ، وتخلف حضارى مطبق ، ففتح عينه علـى تقدم المسلمين فـى العلـوم ، وتفوقهم الحضارى ، وسبقهم فى شتى الميادين ، وخاصة عندما فتح المسلمون الأندلس ، وأقاموا فيها حضارة زاهرة ، ومدنية راقيـة ، واكبها نهضة علمية خارقة ، فحرص علـى أن ينهل مـن علـوم الشـرق الإسلامى ، ويقتبس من حضارته لينهض مثل المسلمين . فكان لابد مـن تعلم اللغة العربية ، والتتلمذ على أيدى علماء االمسلمين ، والرحلـة إلـى حيث يقيمون ، وانكب الغربيون على علوم الشرق الإسلامى ينهلون من معينها الصافى ، ويجمعون المخطوطات الإسلامية إلى اللغات الأوربيـة فى شتى الميادين ، وينقلبون إلى أهليهم فى الغرب يعلمون بنـى وطنهم ما أخذوه عن المسلمين من علوم حتى يتفوقـوا عليهم ، ويتخلصـوا مـن سيطرتهم ، إذ اعتقدوا أنهم لن يستطيعوا التغلب على المسلمين إلا بتعلـم علومهم ، ونقل تراثهم ، وقد ظل هؤلاء المستشرقون يدرسون وينقلـون تلك العلوم علـى يد العرب والمسلمين محتفظيـن لأنفسـهم بعقـائدهم واتجاهاتهم البغيضة نحو الإسلام والمسلمين .

وقد ذكر أحد الباحثين عشرات من الكتـب والمؤلفات التـى نقلهـا المستشـرقون فـى مختلـف التخصصـات العلميـة ، نشـير إلـى بعضهـا فيما يلى :

- فى الفلك والجغرافيا :

١- صورة الأرض : لمحمد بن جابر البتانى. نشره " لولوفيل ".

٢- زبدة كشف الممالك : للظاهرى . نشره " رافيس " .

٣-الجداول الفلكية من الزيج الحاتمى . نشره " برسفال " ١٨٤٧.

٤- كشف المسالك والممالك : لعبد الله القرطبى . نشره البارون " دى سلان " سنة ١٨٧٩ .

- فى التاريخ :

١- واسطة السلوك فى سياسة الملوك : للسلطان موسى بن حمو الثانى. نشره وترجمه للاسبانية " جاسبار ريميرو " .

٢- غانة . ترجمة للفرنسية " جوبير " .

٣- مختصر الدول لابن العبرى مع ترجمة لاتينية له . نشره " بوكوك " الانجليزى سنة ١٦٦٣ .

- فى العلوم والطب :

١- فصول فى الطب والعلاج العربى . نشره "ديفزمرى "و"سانفيناتى "

٢- الآلات المفرغة الهواء والمائية : لفيلون البيزنطى نقله من العربية - نشره " البارون دى فو " .

٣- الكرويات . تصحيح يحى بن محمد المغربى . نشره " البارون دى فو " .

٤- أسماء النباتات المختلفة :لابن العوام- ترجمة "مولله" فى جزءين.

٥- النحل : للسجستانى-ترجمه "برتولومبو" وكذا "لازينيو" الإيطاليين.

٦- طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعه - ترجمه " د.لكلر " .

٧- ملخص فى الطبيعيات : للقوينى - ترجمة " مولله " .

٨- الأشربة : لابن قوتيه - نشره " كي " .

٩- رسالة الصنامرى فى دودة القز،نشره المستشرق "مرسيل" الفرنسى.

- **فى الرياضة :**

١- مخطوطات الرياضيين الإسلاميين - نشره " كروازه الألمانى"

٢- الرياضيون المسلمون - ألفه " كراوزه " الألمانى (طبع برلين عام ١٩٣٦) .

- **فى الفلسفة :**

ترجموا ونشروا الكثير .. ومن ذلك : رسالة حى بن يقظان - نقله إلى اللاتينية " بوكوك " الانجليزى فى القرن السابع عشر الميلادى (١) .

هذا ، ومن الجدير بالذكر أنه " يرجع الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها إلى القرن العاشر الميلادى ، حيث اهتم ملوك أوربا بالآداب والعلوم الإسلامية كافة ، وكما كان المأمون من خلفاء العصر العباسى يبذل بسخاء لترجمة الكتب الأجنبية ، فعل " ألفونس " ملك قشتالة لترجمة كتب العرب ، وهكذا كان قبله " فردريك الثانى " ملك صقلية عام ١٢٥٠ م ، وقد بلغ ماترجم من العربية فى القرون الوسطى أكثر من (٣٠٠ كتاب) ، منها (٩٠) فى الفلسفة والطبيعيات ، و(٧٠) فى الرياضيات والنجوم ، و (٩٠) فى الطب ، و (٤٠) فى الفلك والكيمياء ، وظلت هذه هى زاد أوربا التى أخذت تثريه وتفيد منه شيئا فشيئا حتى كانت نهضتها المادية الكبرى التى هددت كياننا بعد ذلك " (٢) .

الثانى : دافع علمى لبعض المستشرقين ، القصد منه البحث

---

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكرى ص١٧-٢٢ باختصار .

(٢) السابق ص٥٤ .

العلمي الخالص ، ودراسة الإسلام وعلومه ، بتجرد عن الهوى ونزاهة عن التعصب ، دراسةٍ تجلى لهم بعض الحقائق التى خفيت عنهم .

"ومن المستشرقين نفر قليل جدًّا أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ، وهؤلاء كانوا أقل خطأً في فهم الإسلام وتراثه ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف ، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين " (١) ، "

" وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لايسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق ، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية ، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها ، فيحبون أن يتصوروها كما يتصورون مجتمعاتهم ، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التى تفرق بين الأجواء التاريخية التى يدرسونها ، وبين الأجواء الحاضرة التى يعيشونها" (٢) .

ومن الأمثلة على هذه الفئة المستشرق الألماني " يوهان ج رايسكة ، (١٧١٦ - ١٧٧٤ م) الذي كان واحدا من علماء العربية في عصره ، وأول مستشرق ألماني جدير بالذكر - كما يقول الدكتور زقزوق - وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية في ألمانيا ولكن عصره ومعاصريه تجاهلوه ، وحاربه رجال اللاهوت متهمينه بالزندقة ، ولعل ذلك يرجع إلى موقفه الإيجابي من الإسلام ،

---

(١) الاستشراق والمستشرقون . د / مصطفى السباعي ص١٩ .

(٢) السابق ص ٢٤ .

فقد امتدح الدين الإسلامي في كتاب له باللاتينية ، ورفض وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب أو التضليل ، أو وصف دينه بأنه خرافات مضحكة - كما كان ذلك سائداً حينذاك - كما رفض تقسيم تاريخ العالم إلى تاريخ مقدس وتاريخ غير مقدس ، ووضع العالم الإسلامي في قلب التاريخ العالمي ، وفوق ذلك عبر عن آرائه بأعظم قدر من الصراحة ، غير مكترث بكل العواقب المترتبة على ذلك ، وقد جرّ عليه ذلك ويلات كثيرة ، وعاش طول حياته في ضائقة مالية ، ومات بائسا مسلولا وهو في الثامنة والخمسين من عمره ([1]) .

ومن هذه الفئة أيضا المستشرقة الاسترالية المعاصرة " تساريس وادي " التى كتبت كتابا أسمته " العقل المسلم " التزمت فيه الإنصاف والموضوعية حيث عرضت ما تضمنه من أفكار من وجهة النظر الإسلامية ، ومن أفواه المسلمين ، وهو في جملته دفاع عن الإسلام وتنقية له ، وهو يقدم للقارئ الأوربي شيئا غير ما ألف قراءته في الكتب الأخرى عن الإسلام ، وقد أهدت هذا الكتاب إلى شيخ الأزهر الراحل الإمام عبد الحليم محمود ، وعندما زارته في مكتبه بعد إخراج الكتاب ، قدمت له نسخة منه كتبت عليها " إلى الرجل الذي وقفت عليه هذا الكتاب أهدي نسخة منه " ([2]) .

ومن هؤلاء من قاده البحث الحر النزيه ، والمنهج الموضوعي في

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٤٣ - ٤٤

(٢) راجع : صور استشراقية للدكتور / عبدالجليل شلبي ص٩٨-٢١٦ دار الشروق . القاهرة. ط الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م وقد عرض المؤلف لكتاب المستشرقة المذكور بتفصيل وتوسع ، وأطال في الكشف عما احتواه.

دراسته إلى الاهتداء إلى الإسلام واعتناقه ، " منهم المستشرق الانجليزي المشهور " جون فيلبى " فقد استطاع فليبى في خلال إقامته في بلاد العرب أن يطلع على تعاليم الدين الإسلامي إطلاعا مقنعا حبب إليه اعتناق هذا الدين القويم ، وقد لاحظ عليه كثير من المجتمعين به ذلك الحب الكبير الذي يبدو منه نحو الدين الإسلامي ، وهذا التقدير الصادق الذي كان يشعر به لتعاليمه ، حتى إن مكاتب " الماتان " سأله في هذا الصدد في حديثه له ، فقال : لماذا لم تقدم إذن على اعتناق الإسلام حتى يتم لك ما تريد ، وتصبح عربيا دينا كما اتخذت بلاد العرب وطنا ؟ فأجابه : إنني سأكون يوماً ما مسلما عندما يتم اقتناعي بهذا الدين ، فإني لا أريد أن يكون إسلامي ظاهريا أتخذه قناعا أستتر به وقلبى خال من الإيمان والتقوى ، ولم ينته أسبوع حتى أسلم واعتنق دين الحق والمساواة " (١) .

ومنهم كذلك " اللورد هيدلى ، واتين دينيه (ناصر الدين) ، والشاعر الألماني الكبير جوتيه ، والدكتور جرينيه الذي كان عضوا في مجلس النواب الفرنسي ، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال : إنني تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتى درستها من صغرى وأعلمها جيدا ، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فأسلمت لأننى تيقنت أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر ، ولو أن كل صاحب فن من الفنون

---

(١) المستشرقون والإسلام . زكريا هاشم ص١٣ .

أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً كما قارنت أيضا ؛ لأسلم بلا شك إن كان عاقلا خاليا من الأغراض " ([1]) .

وفى عصور الاستشراق المتقدمة كان من أولئك المهتدين المستشرق تورميدا (١٣٥٢ - ١٤٣٢) الذي ولد في ميورقة وتلقى علومه في إيطاليا وانضم إلى الرهبنة الفرنسيسكانية ، ورحل إلى تونس ، حيث أسلم على يد السلطان أحمد بن أبى بكر الحفصى وتسمى بعبد الله بن على واشتغل ترجمانا ، ثم ولاه السلطان المكوس ، ولا يزال قبره داخل باب المنارة ومن آثاره : تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب معتمدا فيه على آراء ابن حزم ([2]) .

هذا وجدير بالذكر الإشارة فى هذا المقام إلى أمر هام ، وهو الحذر من إطلاق وصف " الموضوعية " أو " الإنصاف " على كل من قال أو كتب بعض عبارت المدح فى الإسلام ، أو سطر بحثا يشتمل على ذكر بعض الحقائق الموجودة فى الإسلام من وجهة نظرنا نحن المسلمين ، فموضوعية مثل هؤلاء " موضوعية نسبية " - إذا صح التعبير - أى بالنسبة لغيرهم من المستشرقين ، وليست موضوعية مطلقة ، وإلا فإن كتاباتهم الأخرى لا تخلو من قدح فى الإسلام وغمز ولمز ، إما صراحة وإما ضمنا ، وقد يعمد هؤلاء إلى دراسة الإسلام دراسة وصفية " تستهدف أن تعرف المزيد عن الإسلام لتكون أكثر

---

(١) أساليب الغزو الفكري ص٢٩ نقلا عن التبشير والاستشراق محمد عزت الطهطاوي ص٦٧.

(٢) المستشرقون ١ / ١٢٣ - ١٢٤ .

تهيؤاً لعرض " نقائصه " (١) وأكثر قدرة على محاربتة والقضاء على مكامن القوة فيه.

وعلى سبيل المثال فهذا واحد ممن وصفوا بالموضوعية في محاولة دراسة الإسلام : وهو المستشرق الهولندي هادريان ريلاند (توفي ١٧١٨) الذى أصدر كتابا باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥ م بعنوان "الديانة المحمدية" فى جزأين ، وصحح فيه الأراء الغربية التى كانت سائدة عن تعاليم الإسلام آنذاك ، واعتمد على المصادر الإسلامية والعربية فى بحثه .. وقد اتهم بأنه يريد القيام بعمل دعائيّ للإسلام ، فى حين أنه لم يكن يقصد إلا الوصول إلى فهم الدين الإسلامى فهما صحيحا ممهدا بذلك السبيل إلى محاربته من جانب النصرانية بطريقة أفضل من ذى قبل " (٢) .

ومع هذه الضجَّة التى توِّجت بأن أدرجت الكنيسة الكاثولوكية الكتاب فى قائمة الكتب المحرَّم تداوليا ومع أنه قال : " إن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن " إلا أنه قال بعد ذلك : ".. صحيح إن الدين الإسلامى دين سيئ جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد ، ولكن ؛ أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام فى حقيقته لكى يحاربه بطريقة أكثر أمانا وأشد قوة " (٣) .

---

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ملحق الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٧٦

(٢) الاستشراق والخليفة الفكرية ص ٤١.

(٣) السابق ص ٤٢ – ٤٣ نقلا عن مرجع أجنبى.

ومن العجيب أن نجد الدكتور زقزوق الذى نقل كلام هذا المستشرق وأوردناه عنه سابقاً ، يعقب على هذا الكلام بقوله : " ونعتقد أن عبارات ريلاند الأخيرة هذه كانت مجرد ذرٍّ للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات ، فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى يطلع عليها الجمهور " (١) .

إننى لا أرى داعيا للاعتذار عن سبِّ هذا المستشرق للدين الحنيف بأن هذا السب درء للبطش الذى يخشاه من الكنيسة ، ودفع للأذى المحتمل عن نفسه ، فإن الرجلَ جُلَّ ما فعله أنه قام بعرض الإسلام عرضا وصفياً كما يراه ويعتقده المسلمون ، فكان شاذّاً فى نظر بنى قومه بتبنيه هذا المنهج فى دراسة الإسلام دراسة يرى هو أنها تمكن من القدرة على كبح جماح الإسلام ومحاربته بطريقة تبيده ، ثم إنه مع كل هذا احتفظ لنفسه بما يضمره من مشاعر بغيضه حيال هذا الدين ، بل وأفصح هو عن مكنون صدره وخبيئة نفسه بوضوح فلماذا هذا الاعتذار عنه وتبرير وصفه القبيح للإسلام الحنيف ؟!

إن مَثَل هذا المستشرق كمَثَل رجل غيور على بلده التىتتعرض لهجوم عدو جبار ، وهو يشفق عليها من ضراوة هذا العدو ، فقام بإعداد دراسة وافية عن طبيعة هذا العدو وإمكاناته وقدراته ، راصداً كل هذه الأمور بعين الواقع لا بعين العاطفة ، فطفق يقرر أنه العدو الذى يهاجمنا فى غاية الذكاء والألمعية ، ويتمتع بقوة فى الساعد

---

(١) السابق ص ٤٦ .

والسلاح ، وتسود بين أفراده روح التعاون والوحدة وتسيطر عليهم روح وطنية جموح ، يؤثر بعضهم بعضا ، ويحب بعضهم بعضا ، وهو يبنى حياته ومعاركه على النظام والتخطيط ، وليس غبياً ولا فوضوياً كما يعتقد البعض ... وهكذا فهل مثل هذه الدراسة الوصفية (المفترضة) إنصاف للعدو ومدح له ، أم أنها تبصير بخطورته وضراوته وبأسه وقوته ، وتحذير من الإهمال فى أخذ العدة اللازمة لملاقاته ودحره ، كى لا تكون المفاجأة المهلكة فى ساحة الحرب ؟

ومن أعجب العجب أن يقرأ الأمير شكيب أرسلان بضعة أسطر للمستشرق " جولدزيهر " ويتصور أن فيها شهادة لصالح الإسلام والنبى صلى الله عليه وسلم ، فيعد جولد زيهر بذلك فى مصاف العلماء المدققين المنصفين للإسلام ، وذلك فى تعليقاته النافعة على كتاب حاضر العالم الإسلامى ، وذلك على النحو التالى :

قال شكيب : وقال " غولد سيهر " سيد المدققين ، وحجة المستشرقين فى كتابه " عقيدة الإسلام وشريعته " فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلى : إن دعوة النبى العربى كان فيها نخبة مبادئ إعتقدها هو بالإختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ورآها جديرة بإحياء الشعور الدينى بين قومه ، ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورية لتثبيت سير الإنسان بحسب الآراء الإلهية ، فتلقاها هو بصدق وأمانة ، وبمقتضى إلهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحيا إلهيا ، كان هو مقتنعاً بكونه وحيا إلهيا نازلاً على لسانه (١) .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى تأليف لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض ١ / ٣٧ =

إن وصف جولدزيهر بكونه " سيد المدققين " غير واقعي بالمرة ، بل هو سيد المزورين وكتاباته عن الإسلام تشهد بهذا ، وإذا شئت بعض الدلائل فاقرأ كتابَيْ :" السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، للدكتور مصطفى السباعى " ، و" دفاع عن العقيدة والشريعة ، للشيخ محمد الغزالى " ، كما أن الدكتور محمد البهى قد صنفه ضمن قائمة بالمتطرفين من المستشرقين ، وقال عنه : " جولد زيهر : مجري عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه (١) .

ثم إن النص الذى ذكره شكيب أرسلان - غفر الله له - يعج بالقدح فى الإسلام ، فالرجل يريد أن يقول إن دعوة الإسلام بشرية مخترعة ، لفقها صاحبها من اليهودية والنصرانية وغيرهما ، ولست أدرى كيف لم يتنبه أرسلان إلى قوله : " ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى ... إلخ " وهو لم يخبر بأن محمداً كان نبيا وأن مبادئه إلهية مصدرها الوحى ، وإنما يخبر بأن محمدا هو الذى كان يتصور هذا الأمر ، ويعتقد هو هذا الفهم وذاك التخيل .. فتأمل !!

ثم إن جموع المستشرقين تتصدى لكل من ينحو منحى الإنصاف من زملائهم ، وتمارس ضغوطها لكى تصد عن أىّ توجّه نحو الحيدة العلمية ، " فإن حاول أحدهم أن يبدو محايداً أو يتخفف من أثقال التعصب تجد بقية المستشرقين يهبون فى وجهه يطالبون بأن يكون " موضوعيا " وأن يستخدم الطريقة العلمية ويلجأ إلى النقد ذى

= من حواشي الأمير شكيب أرسلان على الكتاب .

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٤٤٨ .

المستوى العالى ، وهكذا .

ومثال ذلك ما كتبه (ألفرد جيوم) تعليقاً على كتاب " محمد فى مكة " من تأليف مونتجمرى وات ، هاجم (جيوم) وات ، لأن وات خرج عن الخط التقليدى للمستشرقين فى بعض الاتجاهات ، (انظر ص ١٣٨ من مجلة " الإسلام " الصادرة فى ١٥ أبريل ١٩٥٨م) [١] .

وكذلك حين كتب المستشرق الفرنسى كاستريز كتاب " الإسلام " الذى صدر فى باريس عام ١٨٩٦ م ، وكان فيه شئ من الإنصاف للإسلام والنبى صلى الله عليه وسلم ، انتقده كل من " رينيه باسيه " و " كارادى فو " ، وعلق عليه المستشرق الألمانى "جوستاف بفانمولر" فى كتابه موجز فى أدب علوم الإسلام ، الذى صدر أول مرة عام ١٩٢٣م فى برلين بقوله :

" إن رأى كاستريز فى " محمد " إيجابى أكثر مما ينبغى كما أنه يرى فى القرآن أيضاً من البداية حتى النهاية عملاً فريداً ورائعا ، وباختصار : إنها إنطباعات وليست دراسة علمية " [٢] .

فهل دراسة الإسلام لا تكون علمية إلا إذا تضمنت قدحا ولمزا وغمزاً فى الإسلام ، أما إذا احتوت على رأى منصف أو شهادة حق

---

(١) أخطار الغزو الفكرى على العالم الإسلامى د/ صابر طعيمه ص ٧٩ . عالم الكتب . بيروت ط الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م

(٢) راجع الإسلام فى تصورات الغرب د / محمود حمدى زقزوق ص ٥٥ - ٥٦ دار وهبة . القاهرة . طالأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م وهو ترجمة لفصول مختارة من كتاب بفانمولر المشار إليه .

فإنها تكون إنشاءاً وليست دراسة علمية . إن هذا لمقياس عجيب !!

حجم الدافع العلمي ووجوده الآن :

ونتساءل : مامدى وجود الدافع العلمى الخالص وتغلغله الآن فى الحركة الاستشراقية ؟

والواقع أن هذا الدافع لا يكاد يشغل حيزاً يذكر من الدراسات الاستشراقية ، نظراً لأن أصحابه يدفعون ثمناً معنويا وماديا باهظا .

فمن الناحية المعنوية يكونون عرضة للتجاهل أحيانا ، والغمز واللمز أحيانا أخرى ، فهم يلقون عنتاً شديداً من ذوى الدوافع الدينية والاستعمارية والسياسية وغيرها " إذ سرعان ما يتهمون بالانحراف عن النهج العلمى أو الانسياق وراء العاطفة أو الرغبة فى مجاملة المسلمين والتقرب إليهم كما فعلوا مع " توماس أرنولد " حين أنصف المسلمين فى كتابه القيم " الدعوة إلى الإسلام " فقد برهن على تسامح المسلمين فى جميع العصور مع مخالفيهم فى الدين على عكس مخالفيهم معهم . هذا الكتاب الذى يعتبر من أدق وأوثق المراجع فى تاريخ التسامح الدينى فى الإسلام ، يطعن فيه المستشرقون المتعصبون وخاصة المبشرين منهم بأن مؤلفه كان مندفعا بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين مع أنه لم يذكر فيه حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها [١] .

وحين كتب المستشرق بولا نفلييه كتابه " حياة محمد " الذى ظهر

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ص٢٥

فى لندن عام ١٧٣٠، ومجد فيه الإسلام ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ، هاجت الدنيا من حوله ، وانبرى له المتعصبون من أهل ملته ، ورموه بالعداء للكنيسة وعدم الموضوعية والعلمية فيما كتب ووصف المستشرق " جان جانييه " ماكتبه " بولا نفلييه " بأنه " مبالغات مضحكة " (١) .

ومن الناحية المادية فإن دراسات ومؤلفات هذه الفئة ذات الدافع العلمى الخالص لا تروج ، أو بالأخرى لا يُروّج لها كما يُروّج لدراسات من عداهم من الفئات المتحيزة والمتحاملة ضد الإسلام والمسلمين " لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقى رواجا لا عند رجال الدين ، ولا عند رجال السياسة ، ولا عند عامة الباحثين ومن ثمة فهى لا تدر عليهم ربحا ولا مالا " (٢) ولهذا فهم بحاجة إلى موارد مالية تؤمن لهم حياتهم المعيشية بدرجة يمكنهم معها الانصراف إلى دراساتهم ، وهيهات أن يكفل الغرب لمثل هؤلاء تأمين احتياجاتهم المادية .

ومن الأمثلة على وقوف الغرب فى وجه الدراسات المنصفة للحقيقة ، والمصطبغة بالنزاهة العلمية ما حدث مع المفكر الفرنسى رجاء جارودى الذى اعتنق الإسلام ، فقد ظل الرجل نحو نصف قرن تتهافت دور النشر على إصدار كتبه ونشرها ، فلما كتب كتابه الأخير

---

(١) راجع ترجمة ماكتبه المستشرق بفانموللر بهذا الخصوص فى كتاب الإسلام فى تصورات الغرب ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) الاستشراقوالمستشرقون ص ١٩ .

" الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " الذى دافع فيه عن الحقوق التاريخية للعرب والمسلمين فى فلسطين ورد على مزاعم اليهود ، وقال فى كتابه : " إن النصوص التوراتية أو إضطهاد هتلر لليهود لا يمكن أن يبررا سرقة أراضى فلسطين واقتلاع سكانها وقمعهم بتلك الصورة الوحشية والدموية كما أنهما لا يمكن أن يبررا الخطة الإسرائيلية الرامية إلى تفكيك أواصر الدول العربية وتفريقها " عندئذ لم يجد ناشراً فى الغرب ينشر له الكتاب ، فاضطر إلى نشره على نفقته ، فضلا عما لاقاه من عنت مادى ومعنوى شديد ، لدرجة أنه قدم للمحاكم فى فرنسا بموجب قانون ظالم يعتبر إعادة النظر فى تاريخ اليهود جريمة ضد الإنسانية ، ولقد نوّه بهذا فى صدر كتابه فقال : إنه بعد أكثر من نصف قرن صدرت خلاله كتبى عن أكبر دور نشر فرنسية، فإننى مضطر اليوم لأن أطبع هذا الكتاب على نفقتى الخاصة لأننى منذ عام ١٩٨٢ قد خرقت أحد المحرمات عندما انتقدت السياسة الإسرائيلية التى يدافع عنها الآن قانون " جيسوفايوش الغاشم " الذى صدر فى ١٣ يوليه ١٩٩٠ ، والذى يعيد فى فرنسا جريمة الرأى التى سادت عصر نابليون الثالث وجعلت قانونا قمعيا يعوض ضعف الحجج (١) .

هذا وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من فبراير ١٩٩٨ م تمت محاكمة جارودى - كما ذكرت ذلك وكالات الأنباء ونشر عبر وسائل الإعلام المختلفة يومها - وقد أصدرت محكمة باريس حكمها عليه بدفع غرامة قدرها (١٢٠) ألف فرانك ، (أي عشرين ألف دولار) لاتهامه

---

(١) راجع الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص ٥ وما بعدها.ترجمته عن الفرنسية ونشرته دار الغد العربى . القاهرة.ط السابعة ١٩٩٦ م.

بالتشكيك فى جرائم ضد الإنسانية - فى زعم المحكمة - فى كتابه المشار إليه ، كما قضت بالإفراج عن الناشر سارجيوم باعتباره غير مسئول عن توزيع الكتاب .

وجدير بالذكر أن هذا يحدث فى فرنسا بلد ما يزعم بالتنوير وحرية الفكر والرأى !!!

من أجل هذا فإن موقع الدافع العلمى الخالص من الاستشراق يظل ضئيلا ومحدوداً ، حتى إنه ليتوارى فى كثير من الأحيان من خريطة الدراسات الاستشراقية ، كما يظل كذلك محدود الأثر بدرجة يعجز معها عن ترسيخ تيار عام فى إطار الدراسات الاستشراقية ، يستطيع أن يزاحم تيار التحامل والتحيز ضد الإسلام ويعدّل من صورته الشائهة لدى الغرب .

ثالثا -الدافع الاستعماري :

وفيما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر الميلاديين أغار الغرب الصليبى على الشرق الإسلامى فيما عرف تاريخيا بالحروب الصليبية ، ويقرر بعض الباحثين أن من الأمور التى أصبحت معروفة فى أسباب تلك الحروب " أن تلك الأسباب كانت فى ظاهرها دينية ، غايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت فى حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الإسلامى بما فيه من خيرات اقتصادية ومراكز حربية " . (١)

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١١٤ .

ولقد فشلت تلك الحروب على الصعيد العسكرى والسياسى وعادت فلول الصليب المنهزمة تجر أذيال الخيبة ، بينما كادت أوربا تتميز من الغيظ حيال الإسلام والمسلمين ، ومنذ ذلك الحين والعالم الأوربى متحفز مترقب يخطط لكيفية الثأر من العالم الإسلامى ، تراوده فكرة السيطرة عليه والاستيلاء على بلاده بالغلبة وقوة السيف ، وأخذ الغرب فى إهتبال الفرص ، " ودبَّت أوربة دبيباً حول هذا العالم وجعلت تطوق شواطئ القارة الأفريقية من الغرب إلى أن بلغت شواطئ الهند ، طوقته يومئذ بطوق من الثغور تحتلها ، ثم تنفذ من كل ثغر إلى بدن العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً ، على حذر شديد وبلاضجيج يزعج " [١] إلى أن انتصف القرن التاسع عشر الميلادىَ وأخذت أقطار العالم الإسلامى تخضع فعلياً لدول أوربة ، وتسقط فى قبضة الغرب واحدة تلو الأخرى ، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) التى انتهت بهزيمة تركيا وحلفائها حتى " سنحت الفرصة الكاملة لأقوى شعوب أوربة (إنجلترا وفرنسا) وإلى جوارهما (إيطاليا) فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه ، وبسطت سلطانها عليها بأسماء مختلفة من احتلال واستعمار ووصاية وانتداب " [٢] .

---

(١) أباطيل وأسمار . محمود محمد شاكر ص ١٨٣ . مطبعة المدنى . القاهرة . ط الثانية ١٩٧٠ م

(٢) رسالة بين الأمس واليوم للإمام الشهيد حسن البنا . مجموعة الرسائل ص ١٥٢ . دار الدعوة ١٤١١هـ ١٩٩٠ م وقد عرض بالتفصيل لتقاسم الدول الاستعمارية وانتهابها ميراث دولة الخلافة الإسلامية ، وراجع أيضا : الفكر الإسلامى الحديث د / البهي ص ٢٣-٢٤.

وهكذا حلّ الاستعمار الغربيّ فى العالم الإسلامى ضيفاً ثقيلاً ، وأقبل بخيلة ورجله ، ينتهب ثرواته ويمتص خيرات بلاده .

ومن هنا اتجه الغرب إلى الاستشراق لخدمة الهدف الاستعمارى للعالم الإسلامى ، وتلقف الحركة الاستشراقية وجعلها محل رعايته سواء أكان ذلك فى مرحلة الإعداد لوثبته على العالم الإسلامى ، وقبل الاحتلال الفعلى لأقطاره ، أم كان ذلك فى المرحلة التالية ، بعد أن تم بالفعل بسط نفوذه واستيلاؤه على البلاد الإسلامية " المستعمرة " .

فأما فى المرحلة الأولى " مرحلة الإعداد " فقد كان بحاجة إلى معرفة المزيد من المعلومات عن العالم الإسلامى ، مثل جغرافيته ؛ مكامن قوته ؛ نقاط ضعفه ؛ شعوبه ؛ أديانه ؛ لغاته ... إلى غير ذلك من المعلومات التى تزوده بتصور تام عن البلاد التى ينوى احتلالها حتى يتمكن من إحكام الخطط الناجحة التى تمكنه من تحقيق أغراضه الاستعمارية ، وأطماعه التخريبية ، ونواياه العدوانية ... وهنا يبرز دور الاستشراق ليكون بمثابة دليل الطريق للاستعمار ، ورائده فى أودية الشرق وشعابه .

ومن الأمثلة على هذا ما قام به " إدوارد لين " (١٨٠١ - ١٨٧٦) وهو مستشرق إنجليزى قدم إلى مصر عام ١٨٢٥ للتضلع من العربية كتابة وحديثا ، ثم عاد إليها فأقام بها (إلى عام ١٨٣٥) وأكبَّ على درس الحياة فى القاهرة دراسة مباشرة وعاش عيشة المصريين فكان يلقبه أصدقاؤه بمنصور أفندى ، فما عاد إلي بلاده حتى نشر كتابه " أخلاق وعادات المصريين المعاصرة " عام ١٨٣٦ " ونفدت طبعته

الأولى بعد أسبوعين ، فأعيد طبعه مرات فى إنجلترا وألمانيا وأمريكا ، وقد انتفعت به هذه البلاد فى التعرف على عاصمة الشرق الأولى قبل القيام بغزوها (١) .

وأما فى المرحلة التالية " مرحلة الاستيلاء الفعلى على البلاد الإسلامية " ؛ فقد احتاج الغرب المستعمر إلى تثبيت أقدامه فى الشرق الإسلامى ، كما احتاج كذلك إلى تبرير سياسته الاستعمارية ، وحماية نفوذه ومصالحه فى البلاد الإسلامية ، فكان لابد من دراسة بواعث القوة لدى المسلمين لشلها ، ومعرفة نقاط الضعف لاستغلالها ، كما احتاج كذلك إلى طبقة عميلة من أبناء البلاد المستعمرة تخدمه وتؤازره ، وهنا يبرز مرة أخرى دور الاستشراق ، ليقوم كهنته بدراسات مستفيضه عن البلدان الإسلامية وتقديم النصائح المناسبة لأرباب الاستعمار ، والتى تكفل لهم قهر المسلمين وإذلالهم ، واستمرار السيطرة عليهم ، وساعد الاستعمار المستشرقين فى دراساتهم وذلل لهم كل الصعاب التى تعترض طريقهم ، وهكذا اهتم الاستعمار بالحركة الاستشراقية " فكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها وكان قناصلهم فى بلدان الشرق عمالها " (٢) .

ومن الدلائل الهامة فى هذا الصدد ما ذكره " الكونت فيليب دى طرازى " أنه سنة ١٦٧١ م أرسل عالى الجناب الملك " لويس الرابع عشر " رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزود

---

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكرى ص ١٣٣.

(٢) المستشرقون والإسلام . زكريا هاشم ص ٢٠.

مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية (١) .

ولقد اجتمعت كلمة الدول الاستعمارية على أن الخطر الأكبر الذى يتهددهم إنما يكمن فى الإسلام وتمسك المسلمين به ، فهو يأبى على أتباعه المذلة والاستكانة ، ويأمرهم بالجهاد وتحرير الأوطان ، ويعدهم بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، ويأمرهم بإعداد العدة والوحدة والإخاء فيما بينهم وغير ذلك من المبادئ التى تشكل تهديداً فعليا للمستعمر الإجنبى فاتفق رأى هذا المستعمر على ضرورة محاربة الدين العظيم وإضعاف تمسك المسلمين به ، والحيولة بينهم وبين تطبيق مبادئه .

ولقد " قرر المؤتمر الاستعمارى فى برلين ١٩١٠م :

إن إرتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، والمؤتمر الاستعمارى يشير على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير (٢) .

ويقول جلاد ستون الزعيم البريطانى الذى احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م فى عهد وزارته :

---

(١) السابق ص ٢١ بتصرف.

(٢) راجع الغزو الفكرى فى وسائل ثقافة الطفل المسلم للمؤلف ص ٨٨ وما بعدها وفيه المرجع التى أخذ عنها.

"مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق .. بل ولا أن تكون هى نفسها فى مأمن " (١)

ويقول الحاكم الفرنسى فى الجزائر – بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها : " يجب أن نزيل القرآن العربى من وجودهم ، ونقتلع اللسان العربى من ألسنتهم ، حتى ننتصر عليهم " (٢)

ولقد أسهمت الدراسات الاستشراقية بالنصيب الوافر والجهد الواسع فى تمكين الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية ، ومحاولة تهيئة الأجواء والنفوس لقبوله والخضوع لولايته ، ورأينا كثيرين من المستشرقين ارتضوا أن يسخروا علمهم وإمكاناتهم فى سبيل قهر المسلمين وإذلالهم ، بدعم الحركة الاستعمارية ، فكثير منهم " كانوا سياسيين ينفذون رغبات الاستعمار العربى ، فالمستشرق (لويس ماسنيون) و (هانوتو) و (دوق دراكو) و (سانت هلير) وغيرهم كانوا أعضاء فى المجالس النيابية فى بلادهم وكانوا مستشارين لوزارات الخارجية فيها " (٣) .

يقول الدكتور البهى : وينطوى عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيسيتين :

النزعة الأولى : تمكين الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية ،

(١، ٢) السابق

(٣) الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام د / سعد الدين صالح ص ٩١ دار الأرقم . الزقازيق.ط الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م. نقلاً عن الفكر الإسلامى أنور الجندى ص ٢٠٠

وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الأوربى والرضا بولايته .

النزعة الثانية : الروح الصليبية فى دراسة الإسلام ، تلك النزعة التى لبست ثوب البحث العلمى ، وطلاها خدمة الغاية الإنسانية المشتركة .

ويبين أن مظهر النزعة الاستعمارية يتجلى فى : أولاً : إضعاف القيم الإسلامية . وثانياً فى تمجيد القيم المسيحية الغربية (١) .

ويقول المستشرق الألمانى المعاصر (استيفان فيلد) :

" ... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة " (٢) .

ولنذكر هذا المثال دليلا على ما بين الاستشراق والاستعمار من تعاون وترابط وثيق :

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن [العشرين] واجهت هولندا حركة إسلامية وطنية تعارض التسلط الاستعمارى الصليبى وعجزت هولندا عن مواجهة هذا المد الإسلامى التحررى الذى

---

(١) الفكر الإسلامى فى الحديث ص ٤٣.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية ص ٥٤ - ٥٥.

بلغ غايته عندما تأسست أول منظمة إسلامية " شركت داكنج إسلام " وظهرت العلاقات الطيبة بين مسلمى " اتجه " وسلطانها وبين كل من سومطرة والخلافة العثمانية .

واستقر تفكير ساسة هولندا على تجنيد المستشرق الهولندى " سنوك هورو جونجى " لدراسة خطة تعجز الحركة الإسلامية عن المسير إن لم تقتلها ، وهبط المستشرق " سنوك " على أرض سلطنة "اتجه " مركز التأثير الواسع على الحركة الإسلامية ، يدرس الأمر على الطبيعة ثلاث سنوات ، ونشر تقاريره فى كتاب سماه " اتجه " أشار فيه إلى نقط الضعف التى اكتشفها فى المجتمع الإسلامى والحركات الإسلامية فى أندونيسيا وقال : إن هذه الحركة لا يمكن ضربها من الخارج والقضاء عليها بقوة الجيش واعتقال زعمائها وإلغاء نشاطها إذ إن العقيدة الإسلامية متمكنة من نفوس المسلمين ، ولهذا وجب أن يكون الاتجاه إلى ضربها من الداخل عن طريق زرع بذور الخلاف فى صفوفها ، وتشكيك القائمين عليها ، وتوريد آراء وعقائد جديدة إلى المنطقة ، وأهم هذه الآراء نشر التيار القومى والتيار الماركسى .

فعن طريق القومية تنحل الروابط بين " أتجه " و " سومطرة " أو بينها وبين " تركيا " وبينها وبين كافة القوى والشعوب الإسلامية ، كما تضعف قوة اندفاع الحركة الإسلامية العالمية بشل الحركة فى أندونيسيا

أما التيار الشيوعى فهو كفيل ببث الإلحاد ونشر الفساد ، وشغل الوطنيين بمحاربته ، وبهذا ينشغلون عن قبضة هولندا ومؤسساتها (١) .

---

(١) الاستشراق وجه للإستعمار عكرى ص ١٥٩ - ١٦٠.

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نشير إلى الدور الخطير للحركة الاستشراقية فى تثبيت أركان الاستعمار اليهودي الصهيونى لفلسطين المسلمة ، ومحاولات تبريره وإضفاء شرعية على وجوده وممارساته العدوانية وأطماعه الجشعة .

ولقد مر بنا سالفا ما ذُكر من أن على رأس دخول اليهود الحركة الاستشراقية الأسباب السياسية التى تهدف إلى خدمة الصهيونية فكرة أولا ، ثم دولة ثانياً .

ويرى اليهود كغيرهم من أعداء الإسلام ، أن وجودهم الاستعماريّ فى فلسطين لا يهدده شيئ مثل الإسلام وأن عليهم إذا أرادوا أن يضمنوا بقاءهم ، العمل على مكافحته ، وضرب الحركة الإسلامية أينما وجدت ، وتجنيد كل السبل لانجاح هذا العمل .

قال بن جوريون رئيس وزراء العدو الصهيونى الأسبق :

إن كبت المسلمين وتصفيتهم شرط ضرورى للتفاهم والتعامل مع العرب لأن عقليتهم المتعصبة (أى تمسكهم بالحق ومقارعتهم للباطل بما يفرضه الإسلام) تشكل أكبر عقبة فى طريق السلام (١) .

ويقول أيضاً : إن أخشى ما نخشاه أن يظهر فى العالم العربى محمد من جديد (٢) .

---

(١) انظر الغزو الفكرى فى وسائل ثقافة الطفل المسلم ص ٨٨: ٩٠ وفيه المراجع التى أخذ عنها .

(٢) السابق .

وقال راديوا إسرائيل (٨ أيلول ١٩٧٨ ؛) : إن أخطر ما يتهدد مستقبل إسرائيل هو استيقاظ الروح الإسلامية من جديد .

إن على اليهود وأصدقائهم أن يدركوا أن الخطر الحقيقى الذى يواجه إسرائيل هو خطر عودة الروح الإسلامية إلى الاستيقاظ من جديد ، وإن على كل المحبين لإسرائيل أن يبذلوا كل جهودهم لإبقاء الروح الإسلامية خامدة ، لأنها إن اشتعلت من جديد فلن تكون إسرائيل وحدها فى خطر ، ولكن الحضارة الغربية ستكون فى خطر (١)

ومن أجل التمكين للاستعمار الصهيونى لفلسطين ومحاولة إطالة أمده إلى الأبد ؛ يقوم المستشرقون اليهود على وجه الخصوص بالدراسات التى تضمن لهم تحقيق تلك الغاية .

ومن أخطر الدراسات التى تمت بهذه الخصوص ، تلك الدراسة الخطيرة التى تنطوى على تصور ومخطط لتفتيت العالم الإسلامى ، وتفكيكه وإلغاء الأمة الإسلامية وتحويلها إلى ركام من الطوائف والملل والنحل والمذاهب والأقوام والأعراق ، لضمان العلو الإسرائيلى وهيمنة اليهود ليس فقط على فلسطين ، وإنما على وطن العروبة وعالم الإسلام

وقد أعد هذه الخطة وصاغها المستشرق الصهيونى " برناردلويس ".

ونشرتها مجلة Executive Intelligence researchproject التى

---

(١) السابق .

تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - والتى يخطط فيها لتقسيم الشرق إلى دويلات إثنيه أو مذهبية.

وقد كشف عن هذه الخطة الاستعمارية الصهيونية التى صاغها هذا المستشرق ؛ أحد الباحثين (١) ، ونتابع معه عرضها وهو يقول : (٢) .

وبموجب تلك الخطة يدعو برنارد لويس إلى :

١- ضم إقليم بلوشستان الباكستانى إلى مناطق البلوش المجاورة فى ايران ، وإقامة دولة بلوشستان .

٢- ضم الإقليم الشمالى الغربى من الباكستان إلى مناطق البوشتونيين فى أفغانستان ، وإقامة دولة بوشتونستان .

٣- ضم المناطق الكردية فى إيران والعراق وتركيا ، وإقامة دولة كردستان .

٤- إن إقتطاع المناطق الكردية والبلوشية من إيران ، يفتح ملف التقسيم الداخلى لإيران فى ضوء الواقع الإثني ، مما يحقق إقامة الدويلات التالية.

أ- دويلة إيرانستان .   ب- ودويلة أذربيجان .

---

(١) انظر دراسة للدكتور محمد عمارة بعنوان " المشروع الصهيونى لتفكيك العرب والمسلمين " منشورة بجريدة الشعب المصرية عدد رقم ١١٧٦ ، ص٤، الثلاثاء ٣ربيع الأول ١٤١٨هـ ٨يوليو١٩٩٧م .

(٢) السابق .

جـ- ودويلة تركمانستان .   د- ودويلة عربستان .

٥- إقامة ثلاث دول فى العراق :

أ- إحداها كردية سنية فى الشمال .

ب- والثانية سنية عربية فى الوسط .

جـ- والثالثة شيعية عربية فى الجنوب .

٦- إقامة ثلاث أو أربع دول فى سوريا :

أ- منها واحدة درزية .   ب- وثانية علوية (نصيرية).

جـ- وثالثة سنية .

٧- وتقسيم الأردن إلى كيانين :

أ- أحدهما للبدو .

ب- والآخر للفلسطينيين (دون إشارة إلى الضفة الغربية للأردن التى ستضمها إسرائيل) ! .

٨- أما العربية السعودية فسوف يحسن إعادتها إلى الفسيفساء القبلية التى كانت فيها قبل إنشاء المملكة سنة ١٩٣٣ بحيث لا يعود لها من الوزن سوى ما للكويت والبحرين وقطر وإمارات الخليج الأخرى !

٩- يعاد النظر فى الجغرافيا السياسية للبنان على أساس إقامة :

أ- دويلة مسيحية .   ب- ودويلة شيعية .

ج- ودويلة سنية .   د- ودويلة درزية .

هـ- دويلة علوية .

١٠- تقسيم مصر إلى دولتين على الأقل :

أ- واحدة إسلامية .   ب- والثانية قبطية .

١١- بفصل جنوب السودان عن شماله لتقام فيه :

أ- دولة زنجية مستقلة فى الجنوب . ب- ودولة عربية فى الشمال .

١٢- يعاد النظر فى الجغرافيا السياسية للمغرب العربى بحيث تقام للبربر أكثر من دولة حسب التوزيع والانتماء القبليين .

١٣- كذلك يعاد النظر فى الكيان الموريتانى ، من خلال الصراع القائم بين العرب والزنوج والمولدين .

وبعد هذا التخطيط الذى يضيف إلى " تجزئة وتفتيت (سيكس - بيكو) سنة ١٩١٦ " أكثر من ثلاثين دويلة عرقية ودينية ومذهبية .. يضيف برنارد لويس قوله : " إن الصورة الجغرافبة الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق : على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة ، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة فى هذه الدول ، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة "

فالمخطط لا يرى إلا الصراع .. وهو يريد تفتيت الأقوام والملل والمذاهب إلى دويلات ليس لها أدنى مقومات الدول .. كل ذلك لحساب جعل الطوائف اليهودية التى لا تجمعها روابط الأمة الواحدة أو الحضارة الواحدة والتى لم تقم عبر تاريخها الطويل دولة متحدة .. كل ذلك لحساب أن تصبح هذه الطوائف الدولة المهيمنة على وطن العروبة وعالم الإسلام !

نعم ، يفصح برنارد لويس عن هذا المقصد ، فيقول فى هذا المخطط : " ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات ، لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد ، بل سوف تشملها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزواج ووراثة .. إلخ . ونظراً لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل .

ففى سبيل العلو الإسرائيلى الموظف لحساب المشروع الغربى يكون التخطيط والتنفيذ لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية إلى ذرات من الأقوام والملل والنحل والمذاهب والطوائف والأعراق والألوان . أهـ

ولقد غزا المستشرقون اليهود ومناصروهم الموسوعات العلمية الثقافية بأفكارهم الاستعمارية التى تطمس الحقائق ، وتزور التاريخ بما يخدم أطماعهم فى فلسطين .

"وفى هذا الصدد يقول الدكتور كامل العسلي فى مقابلة أجرتها معه صحيفة الدستور الأردنية فى ١٠ / ٥ / ١٩٨٢ ما يلى :

" إن قراءة سريعة للموسوعة البريطانية "إنسايكلوبيديا بريتانيكا" والموسوعة الأمريكية "ماير" والموسوعة الألمانية ، والموسوعة الفرنسية "لاروس" تؤكد أن هذه الموسوعات تتبنى بجلاء وجهة النظر الصهيونية وتدافع وتصر جميعاً على إطلاق اسم " أرض إسرائيل " على فلسطين ، وتزعم أنه لم يكن هناك فى التاريخ ولا فى القانون الدولى بلد يدعى فلسطين ، وهذه الموسوعات تبدأ تاريخ القدس بمملكة

داود وسليمان ، متجاهلة أن القدس الكنعانية قامت قبل داود وسليمان بألفى سنة على الأقل .

ويشير الدكتور العسلى بأسى ومرارة إلى أن الموسوعة الإسلامية قد عهدت إلى يهودى صهيونى ليكتب لها الفصل الخاص بالقدس .

وتعتبر الموسوعة المسماة " انسيكلوبيديا نيو كاكستون " التى تصدر فى بريطانيا من أشد الموسوعات تهجما على العرب والمسلمين ، وقد منع تداولها فى معظم البلاد البلاد العربية ، كما تعتبر دائرة المعارف البريطانية " بريتانيكا انسيكلوبيديا " من أشهر الموسوعات الوثائقية وأكثرها انتشاراً ، ويستطيع المرء أن يكتشف السموم الصهيونية فى ثنايا صفحات هذه الموسوعة بكل وضوح (١) .

"ويشتد الأسى ويتعاظم حين نرى السموم الصهيونية قد امتدت إلى موسوعة تصدرها منظمة " اليونسكو " الدولية التى يشكل المال العربى الإسلامى عصب ميزانيتها ، ففى المجلد الثالث من موسوعة " تاريخ الجنس البشرى وتقدمه الثقافى والعلمى " وتحت عنوان الحضارات الكبرى فى العصر الوسيط ، يطالعنا التعريف الوقح التالى للإسلام :

إن الإسلام هو تركيب " ملفق " من المذاهب اليهودية والنصرانية بالإضافة إلى التقاليد الوثنية العربية التى أبقى عليها الإسلام كطقوس

---

(١) السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية ، زياد أبو غنيمة ص ١١٥ دار عمار . الأردن ط الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

قبلية تجعلها أكثر رسوخا فى العقيدة " (١) .

وأما عمّا تقيّأه المستشرقون اليهود من كتابات تطفح بالضغينة والعداوة للإسلام من أمثال جولدزيهر ، وإسرائيل ولفنسون ومكسيم رودنسون لاذي تظاهر ببعض المواقف المناهضة للصهيونية ، لكنه في حقيقة أمره من ألد أعداء الإسلام وأقسى مهاجميه ، ومرجليوث وبرناردلويس ، وكارل بروكلمان ، وغيرهم فهذه الكتابات لا يخفى أمرها .

وهكذا تحكّم الدافع الاستعمارى اللعين فى توجيه الحركة الاستشراقية كما تحكم فيها وسيطر عليها من قبل الدافع الدينى المتعصب .

رابعا –الدافع السياسي :

ولقد برز هذا الدافع مع بداية استقلال البلدان الإسلامية عن الاستعمار الغربى ، وتجلى أكثر عندما رجعت جيوش المستعمر إلى بلاده ، وجلَت نهائياً عن الدول الإسلامية ، " ففى كل سفارة من سفارات الدول الغربية لدى هذه الدول سكرتير أو ملحق ثقافى يحسن اللغة العربية ، ليتمكن من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة فيتعرف إلى أفكارهم ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريده دولته ، وكثيراً ماكان لهذا الاتصال أثره الخطير فى الماضى حين كان السفراء الغربيون – ولا يزالون فى بعض البلاد العربية الإسلامية –

---

(١) السابق ص ١١٦ – ١١٧ ، واقرأ كذلك ما بعدها .

يبثون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية والدول الإسلامية بحجة توجيه النصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تماما نفسية كثيرين من المسؤلين فى تلك البلاد ، وعرفوا نواحى الضعف فى سياستهم العامة ، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم " (١) .

والدول الغربية تظل دائما بحاجة دائما إلى مشورة المستشرقين والاسترشاد بآرائهم ونصحهم ، عند رسم سياستها الخارجية فى بلاد الشرق الإسلامى ، كما أنها تحتاج إلى من يرصد لها باستمرار واقع تلك البلاد ، وما تموج به من تيارات أو حركات مناوئة أو ممالئة لها ولمصالحها ، ونحو ذلك من الأمور ، ولا يتم ذلك ونحوه إلا بإيجاد متخصصين فى دراسة الشرق دراسة دقيقة ، ومنحهم الرعاية الشاملة والدعم اللازم ، ماديّاً ومعنوياً ، حفاظا على مصالح الغرب فى منطقة الشرق الإسلامى ، تلك المصالح التى يتشبث بها ولا يمكن أن يستغنى عنها أبدا .

يقول الدكتور إبراهيم اللبان : " ... والواقع أن رجال السياسة فى الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (كليات اللغات الشرقية فى أوربا) وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة فى الشئون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية ، وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامى فيذكر أن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسيا فى شئون الشرق الأوسط ، يجمع المستشرقين

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ص ١٨ – ١٩ .

المستغربين ويستمع إلى آرائهم ثم يقرر ما يقرر فى ضوء ما يسمعه منهم ، هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس فى أثناء الحرب " [١] .

ثم إن النفسية الأوربية الكارهة للإسلام والمتخوفة من عودة سلطانه من جديد لم تزل باقية ، ولا يزال الغرب يرى فى الإسلام عدوًا لدوداً يهدد حضارته الغربية المادية بقدرته الحيوية على الانتشار والتوسع ، وبما يملكه من نظرة كلية متكاملة للكون والإنسان والحياة ، مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ومن أجل هذا فهم على يقظة تامة لتحرك المد الإسلامى ، ورصد حركته ، ويعملون بكل السبل لوقف مسيرته ومحاصرته فى أقطاره ، بل ومزاحمته والتضييق عليه فى عقر داره ، والحيلولة دون تبنيه منهج حياة فى البلاد الإسلامية ، وخاصة بعد انهيار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى وانتهاء ما كان يسمى بالحرب الباردة .

ثم إن الغرب لا يزال يتبنى بقوة إشاعة الأفكار والتوجهات التى تضعف من تماسك المسلمين مثل الدعوة إلى القوميات ، وإحلال اللهجات العامية محل الفصحى ، والترويج للعلمانية فى البلاد الإسلامية

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ص ٥٨ نقلا عن د/ اللبان ص ١٨ ، وانظر : الاستشراق وجه للاستعمار الفكرى ص ١٧٣ ، وإيدن هو " أنتونى إيدن " رئيس وزراء إنجلترا السابق والذى شغل من قبل منصب وزير الخارجية ، وأسهم فيما بعد فى العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦م.

وتزيينها لحكام العالم العربى ، ليسهروا على حمايتها ويفسحوا المجال لدعاتها ، وهذا وأمثاله من شأنه أن يفسح المجال للهيمنة الغربية على الشرق الإسلامى ، ويبقى على تبعية هذا الشرق للغرب الأوربي .

ومن ناحية أخرى فإن الغرب يقف وقفة يقظة فى وجه أى دعوة أو حركة إسلامية صادقة وجادة فى العمل من أجل التمكين للإسلام وعودة المسلمين إلى التمسك به ، وتطبيق شريعته تطبيقاً شمولياً يعيد للمسلمين مجدهم وعزهم ، كما كانوا فى سالف عهدهم ، فيتابعون مسيرة هذه الدعوات الجادة ويرصدون حركتها ، ويقوم المستشرقون بدراستها تمهيداً لوضع التصورات والخطط اللازمة لشل فاعليتها والقضاء عليها .

ومن الأمثلة فى هذا الصدد ، ما تقوم به الدول الغربية من متابعة دقيقة لحركة " الإخوان المسلمين " منذ أن ظهرت على يد مؤسسها الإمام الشهيد حسن البنا ، والعمل الدؤوب من جانب تلك الدول على القضاء عليها وإغراء الحكام فى العالم العربى بضربها ومصادرة نشاطها ، وتشويه سمعتها داخليا وخارجيا ، مع أنها حركة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتتبنى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى الدعوة وتغيير المنكر ، وتهدف إلى إيجاد الفرد المسلم والبيت المسلم والمجتمع المسلم ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بناء دولة الإسلام الأولى ، وتدعو إلى تطبيق شرع الله تعالى بشموله ، تطبيقاً يتسنمّ به المسلمون ذرى المجد ، وقمة الفلاح والعز ، وترى - انطلاقاً من مبادئ الإسلام - أن الأمة الإسلامية أمة ذات رسالة ، وهى خلقت لأستاذية العالم ، وقيادة الدنيا بالإسلام إلى بر

النجاة وشاطئ الأمان ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ ([1]) إلى غير ذلك مما قامت عليه ومن أجله مبادئ هذه الدعوة المباركة ، منذ أن صدع بها مرشدها الأول الشيخ حسن البنا - رحمه الله - ولكن دول الغرب - صاحبة مشروع الهيمنة الغربية الصهيونية على العالم الإسلامى - رأت فى تلك المبادئ الخطر الأكبر عليها ، فلم تتردد فى القضاء على الدعوة ، وبدأ التخطيط للقضاء عليها باجتماع سفراء انجلترا وأمريكا وفرنسا فى " فايد" بالاسماعلية بتاريخ ١٠/١١/١٩٤٨م ، وقرروا إتخاذ الاجراءات اللازمة بواسطة السفارة البريطانية فى القاهرة لحل الجماعة ، الذى تم فيما بعد ، وأعقبه اغتيال مؤسسها الشيخ حسن البنا فى ١٢فبراير سنة ١٩٤٩م الموافق ٤ ربيع ثانى سنة ١٣٦٨ هـ ([2]) .

" ويذكر " رينشارد ب. ميتشيل " فى دراسته التى نال بها الدكتوراه عن " الإخوان المسلمين " والتيار السلفى عند رشيد رضا ، أن هذا الاهتمام بالتاريخ العربى والإسلامى هو جزء من السياسة الأمريكية العليا وقد بدأت الحكومة الفيدرالية تهتم بذلك منذ الخمسينيات ، وظهر بأمريكا برنامج " التعليم من أجل الدفاع القومى " أى تعلّم لغات وأحوال الدول الأسيوأفريقية للانتفاع بها فى خدمة السياسة الأمريكية ، وربما كان الاستشراق ستاراً للتجسس " ([3])

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣.

(٢) للاستزادة حول هذا الأمر يراجع : الأسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا . جابر رزق ص ٤٧ وما بعدها ، وص ٥٩ وما بعدها ، وفيه وثائق بهذا الشأن لا يتطرق إليها الشك . دار الدعوة . الاسكندرية . ط الثانية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م. .

(٣) الاستشراق وجه للاستعمار الفكرى ص ١٢٣ نقلا عن الإخوان المسلمون لميتشيل =

هذا وميتشيل نفسه واحد من المستشرقين العاملين بالدوائر السياسية فى بلادهم " وقد عمل بالسلك الديبلوماسى الأمريكى ، قائما بالأعمال فى السفارة الأمريكية باليمن الشمالى خلال السنوات التى سبقت ثورة ١٩٦٢ وكذلك شغل نفس المنصب فى الكويت ، ثم عمل أستاذاً للتاريخ المصرى والعربى الحديث بجامعة ميتشيجان " (١) .

وكذلك من المستشرقين ذوى الأغراض السياسية " برلاندلويس " وهو مستشرق إنجليزى يعمل فى الأوساط السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية وبخاصة بعد حرب ١٩٦٧ الإسرائيلية المصرية ، ورغم أنه متقاعد ، فإنه يعمل الآن (عام ١٩٨٩) أستاذاً بجامعة " برينستون " ، ويتضح فى أعماله التشكيك والتشويه لأخبار العالم العربى ، وهو يركز على أن العالم العربى والإسلامى فى صحوته الحاضرة يهدد دول الغرب وحضارتها " (٢) .

وأيضاً فإن المستشرقين : " برنارد لويس " و " إيلى خدورى " و " بى . جيه . فاتيكوتيس " هؤلاء الثلاثة " يكسبون عيشهم كأساتذة جامعيين ، يتخذون الإسلام والحضارة العربية موضوع اختصاص لهم ، بينما يجرى استخدام الصهيونية لهم – فى الوقت ذاته – لإفهام العالم الناطق بالإنجليزية أن الإسلام من العوامل المساعدة على إفراز اللاسامية ، والإرهاب ، والطغيان.

= ص ٧ من تقديم صلاح عيسى .

(١) السابق ١٧٠ .

(٢) أيضا ص ١٥٢.

وهذا الإرهاب مقصود به دفاع الفلسطينيين عن ديارهم ، والليبيين عن حقوق بلادهم ، والعراقى فى تطوير بلاده التقنى ، بينما ما يذاع عن الإرهاب الموجه من أمريكا ضد العرب فى أراضيهم لا يذكر عنه شئ ، كما لا يذكر ما يجرى داخل أمريكا من الإرهاب العنصرى " [١]

خامسا – الدافع الاقتصادى :

ومن بين دوافع الاستشراق كان هناك الدافع الاقتصادى ، حيث رغبت الدول الأوربية فى تنشيط تجارتها مع دول الشرق الإسلامى ، وتسويق منتجاتها ، والبحث عن مواد خام لصناعاتها ، فلزم الأمر القيام بالتعرف على الشرق وطبيعته وجغرافية بلاده وعادات شعوبه ومعتقداتهم ، وتوظيف هذه المعرفة بالشرق فيما يخدم الهدف الاقتصادى .

وقد سبقت الإشارة إلى ما جاء فى تقرير المراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كمبردج بشأن إنشاء كرسى اللغة العربية فيها ، فى خطاب مؤرخ فى ٩ مايو ١٦٣٦م إلى مؤسسى هذا الكرسى ، حيث أشار صراحة إلى خدمة هدفين : إقتصادى يكمن فى " تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية " ، وتبشيرى يتمثل فى " تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة ، والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات " . [٢]

---

(١) السابق ص ١٥١.

(٢) انظر ص : ٣٤ .

وهناك ما يمكن أن يسَمى الدافع الاقتصادى " الفردى " والذى يشير إليه الدكتور البهي بقوله : " ويبدو أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية ، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء فى العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصا من مسئولياتهم الدينية المباشرة فى مجتمعاتهم المسيحية . أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخونهم فى الدين ، وتغطية لعجزهم الفكرى ، وأخيراً بحثا عن لقمة العيش ، إذ إن التنافس فى هذا المجال أقل منه فى غيره من أبواب الرزق (١) .

وبالإضافة إلى امتهان بعض الغربيين للإستشراق طلباً للرزق ، فهناك أيضاً " كثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها ، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التى تدور حول الاسلاميات والشرقيات ، ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة فى أوربا وآسيا ، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار كثيرة الذيوع ، وهى ولا شك وسيلة لتجارة رابحة ، وكسب أموال خطيرة " (٢) .

تلك أبرز الدوافع التى كانت وراء نشأة وازدهار الحركة الاستشراقية ، وربما كان هناك بعض الدوافع الأخرى ، لكن أصحابها

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية . أبو الحسن على الحسينى الندوى ص ١٨٨ . دار القلم . الكويت . ط الرابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

كانوا قلة ، وبالتالى لم يتمخض عنها تيار بارز داخل الحركة الاستشراقية ، ومن هذا القبيل مايشير إليه أستاذنا البهى من دوافع " شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهيأ لهم الفراغ والمال ، واتخذوا الاستشراق وسيلة لاشباع رغباتهم الخاصة فى السفر أو فى الاطلاع على ثقافات العالم القديم " (١) وبدافع من غريزة حب الاستطلاع التى فطر عليها الإنسان ، ومن هنا رأيت الاكتفاء بالحديث عن الدوافع السالفة وهى الدينية والعلمية والاستعمارية والسياسية والاقتصادية .

إن حركة كحركة الاستشراق تنشأ بتلك الدوافع والمقاصد ، وتضم فى طياتها الصليبيَ المتعصّب ، واليهوديَّ الحاقد ، والإستعماريَ الجشع ، بالإضافة إلى من يدور فى فلك هؤلاء من أعداء الإسلام وطلاب الدنيا ، لتمثل تهديداً صارخاً ، وتحدّياً كبيراً لنا نحن المسلمين ، لا يجوز التغافل عنه ، ولا الاستهانة بخطره وعظيم ضرره ، ونسأل الله ألاّ يجعلنا من الغافلين .

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٣٠.

الفصل الثالث

وسائل المستشرقين

ولقد سلك المستشرقون كل طريق ظنوه موصلاً لغاياتهم ، ومحققاً لأهدافهم ، فعقدوا المؤتمرات وألفوا ونشروا الكتب ، وأصدروا الموسوعات والدوريات ، وأنشأوا كراسيّ للاستشراق ، ودرّسوا في الجامعات واشتركوا في المجامع العلمية ، إلى غير ذلك من الوسائل المتنوعة التي سخروها لخدمة أغراضهم على كل صعيد.

وسوف نلقي الضوء على أبرز وسائل الاستشراق فيما يلي:

أولاً – تأليف الكتب :

ولا يخفى أن للكتاب دوراً كبيراً في نشر المبادئ وإشاعة الأفكار ، وهو وسيلة قديمة لم تستطع المخترعات الحديثة في مجال الاتصال والإعلام ، أن تقلل من خطورتها ، ودورها الفعال في ترويج ونشر الثقافات والدعوات .

من هنا اهتم المستشرقون بهذه الوسيلة الفعالة ، فعكفوا على تأليف الكتب ، وإصدار الموسوعات ، وإخراج المعاجم ، حتى صار لهم إنتاج ضخم ، وسيل متدفق من الكتب والموسوعات التي تحمل أفكارهم ، وخلاصة آرائهم ، بشتى اللغات الأجنبية ، وبعض هذه الكتب ترجم إلى اللغة العربية .

ولقد أنتج المستشرقون آلاف الكتب والبحوث ، بل عشرات الآلاف ، التى تضمنت الحديث عن جوانب الإسلام المختلفة ونواحيه المتشعبة ، فتطرقت إلى العقيدة والشريعة ، والسنة والتاريخ ، والسيرة والفقة ، والدعوة الاسلامية ، واللغة العربية ، وغيرها من جوانب الثقافه الإسلامية ، وهذه الكتب – فى الأغلب والسواد الأعظم منها – قد حوت تزويراً للحقائق وافتراءات على الإسلام ، وهجوماً عليه ، وإنتقاصاً منه وتحقيراً لمبادئه وتعاليمه ، وازدراءً لأهله ، بأساليب غاية فى المكر والخبث ، منها مايتسم بالوضوح ، ومنها ما يتدثر بالخفاء والإلتواء .

وقد أورد أستاذنا البهي قائمة ببعض الكتب الاستشراقية المتطرفة المشوهة للإسلام ، والشائعة الانتشار ، أولها شبه حجية عند المسلمين، و منها :

- حياة محمد – تأليف سير وليام موير.
- الإسلام -- من تأليف ألفرد جيوم.
- الإسلام . ظهر بالفرنسية من تأليف هنرى لامنس.
- تاريخ مذاهب التفسير الاسلامى . ظهر بالألمانية ، وترجم إلى العربية ، من تأليف جولد زيهر.
- مصادر تاريخ القرآن بالإنجليزية تأليف آرثر جيفرى .
- التطورات المبكرة فى الإسلام . بالانجليزية . من تأليف د.س مرجليوث .
- الحلاج الصوفى الشهيد فى الإسلام ، ظهر بالفرنسية من تأليف لوي

ماسنيون .

- اليهودية فى الإسلام ، ظهر بالانجليزية من تأليف إبراهام كاسن.
- مقدمة القرآن بالانجليزية من تأليف ر.بل.
- دعوة المئذنة ظهر بالانجليزية من تأليف كينيت كراج
- دراسات فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، بالانجليزية ، تأليف فون جرونباوم ([1]) .

ومن المؤلفات الخطيرة :

١- كتاب ميزان الحق : للدكتور فاندر المستشرق الأمريكى . والدكتور سنكلير تسدل.

٢- كتاب الهداية : ويقع فى أربعة أجزاء وهوتفنيد مريع للإسلام ، وطعن سافر فى القرآن الكريم .

٣- كتاب مقالة فى الإسلام للدكتور المستشرق سال .

٤- كتاب مصادر الاسلام للدكتور سنكلير تسدل .

وهذه الكتب الأربعة تعتبر للمستشرقين والمبشرين من أخطر المراجع للهجوم على الإسلام والقرآن الكريم والرسول الأمين ([2]) .

"ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار " دائرة المعارف الإسلامية " بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التى صدرت بها الدائرة ، وقد بدأوا فى الوقت الحاضر

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث ص ٤٥٣ - ٤٥٥ باختصار.

(٢) الاستشراق والتبشير وصلتها بالإمبريالية العالمية . إبراهيم خليل أحمد ص٧٢-٧٣. مكتبة الوعي العربى . القاهرة .

فى إصدار طبعة جديدة تظهر فى أجزاء ، ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة ، وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم ، على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين " (١) .

هذا ، وهناك بعض الكتب والمعاجم وضعها المستشرقون ، وبعض المخطوطات التى نشروها أفادت الدراسات الإسلامية والعربية إفادة طيبة ، لكن هذه الإفادة جاءت عَرَضاً ولم تكن مقصودة ، ومن الأمثلة على هذا : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، الذى اعتنى به المستشرق الهولندى فنسنك وعدد آخر من المستشرقين .

وهو – بلاشك – عمل ضخم ، وإنجاز عظيم ، وقد " اشترك فى تمويله مؤسسات حكومية رسمية معروفة بنشاطاتها فى خدمة الاستعمار الغربى ، وفى حرب الإسلام والمسلمين ، ومنها على سبيل المثال : الأكاديمية الهولندية نفسها ، وكذلك الأكاديميات الرسمية فى كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، والدول الاسكندنافية ويوغسلافيا .

ولا يقول عاقل إن هذه المؤسسات قامت بتمويل المشروع خدمة للعلم لوجه العلم . أما انتفاع المسلمين بالمعجم فقد جاء عرضاً ، ولم يكن قط مقصودا من المستشرقين أو مموليهم .

وهذا يذكرني بإنشاء المستعمرين الأوربيين لخطوط السكك الحديدية فى مستعمراتهم فى إفريقيا وآسيا ، فلا شك أنها أنشئت

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٣٣ .

لاستنزاف ثروات الشعوب المستعمرة ، ولنقلها إلى الدولة الأوربية بأسرع طريقة ممكنة ، ولكنها أفادت أهالى المستعمرات عندما قدروا على الانتفاع بها (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) [١] " [٢] .

ويقول العلامة محمود محمد شاكر مجلّياً بعض الحقائق :

"لا تصدق من يقول لك إن " الاستشراق " قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة ، فهذا وهم باطل ، كانوا لا يطبعون قط من أى كتاب نشروه أكثر من خمسمائة نسخة ، – ولم تزل هذه سنتهم إلى يومنا هذا – توزّع على مراكز الاستشراق فى أوربا وأمريكة ، وما فضل بعد ذلك وهو قليل جداً ، كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر ، لم يسعوا قط إلى تسويقها بين ملايين العرب المسلمين ، كما يسوّقون بضائعهم وتجارتهم وسائر ما ينتجون ، بين هذه الملايين طلبا لربح المال ، هدفهم كان ما قلتُ لك لاغير " [٣]

ولقد عُني بعض الباحثين بمحاولة إحصاء التراث الاستشراقى ، أو ماكتبه المستشرقون فى التراث العربى الشرقى عامة ، وماكتبه فى الإسلاميات خاصة ، وإن لم يكن الإحصاء تاما ، فضلا عن أنه ظهرت

---

(١) سورة الأنفال : ٣٠ .

(٢) الإستشراق وجه للاستعمار الفكرى ص ١١٩.

(٣) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا . محمود محمد شاكر ص ٧٨ هامش . سلسلة كتاب الهلال (دار الهلال بالقاهرة) العدد ٤٨٩ سبتمبر ١٩٩١م ط الثالثة.

كتب كثيرة وأعداد من البحوث وفيرة بعد محاولاتهم تلك ، إلا أنه قد صفا لهم الكثير ، واستطاعوا أن يحصروا ويذكروا أعدداً وفيرة من عناوين وأسماء الكتابات الإستشراقية فى الإسلام وغيرها .

ومن هذه النماذج كتاب " موجز فى أدب علوم الإسلام " للمستشرق الألمانى الدكتور " جوستاف بفانموللر " حيث أوردفيه مؤلفه عدداً كبيراً من المراجع الغربية التى تناولت الإسلام فى مختلف فروع ثقافته . وصنفها تصنيفاً موضوعياً ، مع عرض موجز لما يحتويه كل مرجع ، وهو يتناول فى دراسته ما كتب فى الفترة من بداية القرن الثامن عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين (١٩٢٣م)

وقد ترجم بعض فصوله الدكتور محمود زقزوق ، وجعلها فى كتاب بعنوان : " الإسلام فى تصورات الغرب " (١)

وكذلك كتاب " المستشرقون " للعقيقى على مدى أجزائه الثلاثة ، حيث عرض لمستشرقى كل بلد أوربى ، وعند الحديث عن كل مستشرق يذكر آثاره ثم ضمَّن الفصل السابع والعشرين ذكراً خاصاً لما صنَّفه المستشرقون فى تراثنا عامة والإسلاميات خاصة (٢) .

ثانيا : دور النشر الاستشراقية :

وإذا كان للكتاب أهميته الكبرى ، باعتباره وسيلة هامة وفعّالة لنشر المعارف والمعتقدات ، فإنة فى عصرنا الحاضر - لاغنى له عن

---

(١) انظر الفصول : الثانى والثالث والرابع من ص ١٩ - إلى آخر الكتاب .

(٢) انظر جـ ٣ ص ٤٣٨- ٥٩٧.

دار النشر التى تتولاه ، فتقوم على إعداده وتجهيزه فنيًا ، والترويج له وتوزيعه فى الأماكن والبلدان المختلفة ، إلى غير ذلك مما تقوم به دور النشر فى الوقت الحالى وما تضطلع به من مهام ، تسهم فى إنجاح الكتاب ونحوه ، وتحقيق الهدف المرجو من وراء تأليفه .

ومن هذا المنطق كان من وسائل إذاعة الفكر الاستشراقى فى العالم الغربى ، وأحياناً خارجه ، والترويج لأبحاث وكتب المستشرقين عن الإسلام والمسلمين - خاصة - ؛ دور النشر . ومن أشهرها كما ذكر العقيقى :

فى باريس :

- دار إرنست لرو ، معروفة بنشر المطبوعات الاستشراقية من كتب ومجلات ونشرات ، وبإصدار فهرس مفصّل دقيق كل عام بعنوان : مسرد عام .
- دار هنرى فلتر ، وفيها الكثير من المخطوطات العربية والفارسية والتركية النفيسة ، وقد وصفت فى عدة فهارس متلاحقة .
- دار مزونيف ، من أكبر دور النشر الاستشراقية فى فرنسا وأوربا .
- مكتبة جابلادا وشركاه .

وفى إنجلترا :

- دار بروبستاين وشركاه فى لندن ، وتنشر فهرسا دوريا باسمه .
- دار هيفر وأولاده فى كمبريدج ، وتنشر بعنوان المكتبة الآسيوية فهارس دقيقة للمطبوعات الشرقية على اختلاف موضوعاتها .
- دار برنارد كوار يتش فى لندن ، وتنشر فهرسا دقيقاً مشهوراً

بعنوان : فهرس المؤلفات الشرقية .

وفى أسبانيا :

- دار مايسترى فى مدريد .

وفى ألمانيا :

- دار هاراشوفيتش فى فيسبادن ، ولها نشرة شهرية لوصف مايصدر من الكتب فى مصر ولبنان وسوريا والهند والمغرب الأقصى .

وفى هولندا :

- دار بريل فى بولونيا (١) .

ثالثاً : المجلات :

وللمستشرقين اليوم عدد كبير من المجلات السيارة فى كثير من بلدان أوربا ، وقد " زادت المجلات والدوريات الشرقية لدى المستشرقين على ثلاثمائة مجلة متنوعة . خاصة بالاستشراق ، ماعدا مئات تتعرض له فى موضوعاتها العامة : كمجلة القانون المقارن ومحفوظات التاريخ، ومباحث العلوم الدينية، وهى تنشر بمختلف اللغات وبعضها بثلاث ، وتتناول مباحثها الشرق فى لغاته وأديانه وعلومه وآدابه وفنونه ، قديمها وحديثها وتأثرها وأثرها ومقارنتها بغيرها "(٢)

ومن هذه الدوريات - كما ذكر أستاذنا البهى - :

- " مجلة العالم الإسلامى " مجلة تبشيرية تصدر بالإنجليزية فى هارتسورد بأمريكا ، وتوزع فى جميع أنحاء العالم .

---

(١) المستشرقون ٣ / ٣٨٩-٣٩٠ باختصار .

(٢) السابق ٣ / ٣٧٧ .

- " مجلة العالم الإسلامى " مجلة تبشيرية تصدر فى فرنسا ، وتوزع فى جميع أنحاء العالم. .

- " مجلة جمعية الدراسات الشرقية " أنشأها المستشرقون الأمريكيون فى جامبير بولاية أوهايو ، وكان لها بعض فروع فى أوربا وكندا .

- " مجلة شئون الشرق الأوسط " تصدر بالإنجليزية فى أمريكا ، ويحررها عدد من المستشرقين المعادين للعرب والمسلمين ، واهتمامها موجه فى الدرجة الأولى إلى الجوانب السياسية .

- " مجلة الشرق الأوسط " مجلة أمريكية سياسية تتعرض للإسلام من وقت لآخر فى بعض المقالات ... ([1]) .

وجدير بالذكر أن " مجلة العالم الإسلامى " الفرنسية نشرت فى عدد (نوفمبر ١٩١١م) إصداراً " ضخما ليس فيه غير بحث واحد ، وهو بحث تبشيرى يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانية فى العالم الإسلامى ، وما قيل فى المؤتمرات التى عقدتها تلك الإرساليات فى أوقات مختلفة ، وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث : (الغارة على العالم الإسلامى) أو (فتح العالم الإسلامى) " ([2]) .

وكان الهدف من هذا – كما يرى العلامة محب الدين الخطيب – " أن المجلة الفرنسية بنشرها هذا العدد الخاص بأعمال المبشرين البروتستانت ، تقول للمبشريين الكاثوليك : انظروا كيف سبقكم الآخرون إلى الغارة والفتح ، فيجب أن تضاعفوا جهودكم وتنظروا فى

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٥٥ – ٤٥٦.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى . تأليف ا.ل شاتليه ، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب ومساعد إليافى ص ٣ . المطبعة السلفية . القاهرة ط الرابعة ١٣٩٨ هـ.

أساليبهم فيستفيدوا منها " (١)

وقد قام الأستاذان محب الدين الخطيب ومساعد إليافي بترجمة ذلك العدد وتلخيصه ونشره في جريدة المؤيد سنة ١٣٣٠ هـ ونقلت ذلك عنها صحف ومجلات أخرى في حينه ، ثم طبع هذا - فيما بعد - في كتاب مستقل بنفس العنوان (الغارة على العالم الإسلامى) وقد كان أبرز الخطوط العريضة التى حواها عدد المجلة المشار إليها بعد مقدمة المِسيولُ شاتليه عن إرساليات التبشير البروتستانتية مايلى.

- تاريخ إرساليات التبشير.
- مؤتمر التبشير الأول فى القاهرة (مصر) سنة ١٩٠٦ .
- مؤتمر التبشير الثانى فى أدنبرج (انكلترا) سنة ١٩١٠ .
- مؤتمر التبشير الثالث فى لكنو (الهند) سنة ١٩١٣ .
- التنظيم المادى لإرساليات التبشير .
- مقاصد المبشرين وآمالهم فى المستقبل.
- أدبيات إرساليات التبشير.
- النتائج. (٢)

وهكذا تتبين خطورة المجلات الاستشراقية ، ونشاطاتها المكرسة لخدمة أغراض القوى المعادية للإسلام.

رابعاً : كرسي التدريس فى الجامعة :

ولقد استخدم المستشرقون التدريس فى الجامعة لنشر أفكارهم ،

---

(١) السابق نفس الموضع.

(٢) انظر فهرس كتاب الغارة على العالم الإسلامى ، وموضوعاته بالداخل .

وتوسلوا بذلك لتحقيق أغراضهم . وخاصة من خلال إنشاء أقسام للدراسات الإسلامية والعربية بالجامعات الغربية.

ولاتكاد تخلو عاصمة من عواصم الغرب الآن من جامعة بها تخصص أو قسم خاص بالاستشراق عامة ، وأحياناً تكون فى بعضها معاهد مستقلة للدراسات الاستشراقية ، وداخل هذه الأقسام والمعاهد فى الغرب أقيمت تخصصات وأقسام فى الدراسات الإسلامية على وجه الخصوص ، وذلك " لاستقطاب من يستهويه هذا الجانب ، ثم تقديمه من وجهة نظر خصوم بارعين مدرّبين على العرض المشوّه للإسلام ، بما يخدم أغراضهم التى من أهمها تقزيز غير المسلمين منه ، ثم تشويهه وجعله فى نظر المسلمين قضية فيها نظر ، وليس من مسلمات الفكر المعتمدة .

وقد بلغ عدد هذه الأقسام [الإسلامية] فى الجامعات الغربية أكثر من ستين قسما فى أكثر من ستين جامعة فى الغرب ، على رأس الأقسام أساتذة يهود ، ومحاورهم الأصلية تدور - فى كياسة - حول التشكيك فى الوحى ، وفى السنة ، وفى تجريح الرسول والصحابه ، وتجريح كبار حملة الإسلام فى تاريخه الفكري والحركي " (١) .

ويتخرج من أقسام الاستشراق ومعاهده فى الغرب آلاف من الدارسين ، يتوجهون بعد ذلك إلى ساحات العلم والفكر والسياسة وغيرها ، وقد تشربوا فكر أساتذتهم من المستشرقين ، وتأثروا

---

(١) الاستشراق وجه للإستعمار الفكري . ص ٦٩.

بأخلاقهم ، والتزموا بمناهجهم ، ولاننسى أن من بين أولئك المتخرجين كثيرين من أبناء المسلمين والعروبة ، ابتعثوا ليتعلموا فى الغرب ويتخرجوا بأيدى المستشرقين ، وهم يعودون إلى بلادهم بفكر شائه ، ومعتقدات غير صالحة فيما يتعلق بالعروبة والإسلام ، إلا من عافاه الله ، وقليل ماهم .

وهذه الأقسام تمنح درجات الماجستير والدكتوراه فى أى فرع من فروع الدراسة بها سواء للغربيين أم لغيرهم من أبناء العرب والمسلمين ، ويشرف على هذه الأقسام ، وعلى الرسائل العلمية فيها – فى كثير من الأحيان – مستشرقون ذوو توجهات وأديان مختلفة ، فمنهم اليهودى ، ومنهم الاستعمارى ومنهم صاحب التوجّه التبشيرى ، وغيرهم ، وهم يتحكمون فى توجيه وتسيير برامج الدراسة فى أقسامهم بما يتمشى مع أهدافهم وتوجهاتهم والتى لا تكون – غالبا – فى صالح الإسلام والمسلمين .

وهناك دلائل على أن المستشرقين حريصون ما وسعهم الحرص ، على ألاّ يمكنوا باحثا تحت إشرافهم من كشف باطلهم ، وهدم شبهاتهم التى نسجوها حول الإسلام ، فلا يسمحون لطالب يتلقى العلم فى معاهدهم ويمنح الشهادة بواسطتهم أو يجاز بأيديهم ، لا يسمحون له بإنصاف الإسلام ، وذكر الحق مجرداً من كل هوى ، ودحض أباطيلهم ومفترياتهم ضد الإسلام وأهله ، وإن خرج عن مألوفهم وأراد أن يحق الحق ويبطل الباطل فى قضية تتعلق بالإسلام وشريعته ، بُخس حقه فى الدرجة العلمية ، بل وتعرض – فى غالب الأحيان – للرسوب ، والحرمان من الشهادة التى تقدم لنيلها غير مأسوف عليه

وهذان دليلان على ذلك ، قد ذكرهما شاهد عيان ، هو الدكتور مصطفى السباعى - رحمه الله - نوردهما نقلا عنه فيما يلى :

أما الأول : فقد ذكره فى معرض حديثه عن زيارته لجامعة لندن ، ولقائه مع البروفسور " أندرسون" رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها فى العالم الإسلامى ، فى معهد الدراسات الشرقية فى جامعة لندن ، وهذا المستشرق متخرج من كلية اللاهوت فى جامعة كمبردج ، وكان من أركان حرب الجيش البريطانى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية - كما ذكرهو ذلك للدكتور السباعى - .

قال الدكتور السباعى : لا أريد أن أذكر أمثلة عن تعصبه ضد الإسلام - وقد حدثنى كثيرا عن ذلك المرحوم الدكتور " حمود غرابه " مدير المركز الثقافى الإسلامى فى لندن - حينذاك - ، ولكنى أكتفى بأن أذكر ما حدثنى به البروفسور " أندرسون " نفسه من أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراه فى التشريع الإسلامى من جامعة لندن لسبب واحد ، هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة فى الإسلام ، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة ، فعجبت من ذلك وسألت هذا المستشرق : وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراه لهذا السبب وأنتم تدعون حرية الفكر فى حامعاتكم ؟ قال : لأنه كان يقول : إن الإسلام يمنح المرأة كذا ، والإسلام قرر للمرأة كذا ، فهل هو ناطق رسمى باسم الإسلام ؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعى حتى يقول هذا الكلام ويتكلم باسم الإسلام ؟ إن

آراءه فى حقوق المرأة لم ينص عليها فقهاء الإسلام الأقدمون ([1]) ، فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادعى أنه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة والشافعى ([2]) .

وأما الدليل الثانى : فقد ذكره الدكتور السباعى وهو يقرر أن المستشرقين لا يوافقون أبداً على رسالة لطلب الدكتوراه يكون موضوعها إنصاف الإسلام ، وكشف دسائس أولئك المستشرقين .

وأردف قائلاً : وقد حدثنا الدكتور محمد أمين المصرى - وهو خريج كلية أصول الدين فى الأزهر وكليه الآداب ومعهد التربية فى جامعة القاهرة - عما لقيه من عناء فى سبيل موضوع رسالته التى أراد أن يتقدم بها لأخذ شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعات انجلترا

لقد ذهب إليها (في عام ١٩٥٨) لدراسة الفلسفة وأخذ شهادة الدكتوراه بها ، وما كاد يطلع على برامج الدراسة - خاصة دراسة العلوم الإسلامية فيها - حتى هاله ما رآه من تحامل ودس في كتب المستشرقين ، وخاصة " شاخت " فقرر أن يكون موضوع رسالته هو نقد كتاب " شاخت "

تقدم إلى البروفسور " أندرسون " ليكون مشرفا على تحضير هذه

---

(١) إن هذا جهل أو تجاهل من هذا المستشرق الحقود ، فلا يُتَصَوَّر أن فقهاء الإسلام - وهم قمم فى الفقه وبحور فى العلم - لم ينصوا فى مصنفاتهم على حقوق المرأة فى الشريعة الإسلامية ، وكتبهم تشهد بخلاف ما زعم . قبّحه الله .

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٢-١٣ ، الاستشراق والمستشرقون ص ٥١-٥٢ .

الرسالة ، وموافقا على موضوعها ، فأبى عليه هذا المستشرق أن يكون موضوع رسالته نقد كتاب " شاخت " ، وعبثا حاول أن يوافق على ذلك ، فلما يئس من جامعة لندن ، ذهب إلى جامعة كمبردج ، وانتسب إليها ، وتقدم إلى المشرفين على الدرسات الإسلامية فيها برغبته فى أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه هو ماذكرناه ، فلم يبدوا رضاهم عن ذلك ، وظن أن من الممكن موافقتهم أخيرا ، ولكنهم قالوا له بصريح العبارة : إذا أردت أن تنجح فى الدكتوراه فتجنب انتقاد " شاخت " ، فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك ، وعندئذ حوّل موضوع رسالته إلى " معايير نقد الحديث عند المحدثين " فوافقوا ونجح فى الدكتوراه (١) .

ثم إن المستشرقين لايبثون آراءهم من خلال التدريس في كراسي الاستشراق بجامعات الغرب فقط ، بل يأتون كذلك للتدريس والمحاضرة في الجامعات الموجودة في البلاد الإسلامية والعربية ، وخاصة الجامعات غير الحكومية مثل الجامعة الأمريكية بالقاهرة ومثيلاتها فى بلاد إسلامية وعربية أخرى مثل استانبول ، وباكستان وبيروت ، كما إنهم يُسْتَقدَمون بين الحين والآخر ليحاضروا فى بعض الجامعات الوطنية في البلاد الاسلامية ، وقد أتوا بشكل ملحوظ إلى جامعة القاهرة أيام ربيبهم وصنيعهم "طه حسين" ، الذي " فتح أبواب الجامعة (وكلية الآداب بالذات) للمستشرقين وعتاة الدراسات التبشيرية والتغريبية ليحطموا في نفوس أبناء أمتنا كل عقائدهم ومقدساتهم" (٢)

---

(١) المرجعان السابقان : (السنة ص ١٧-١٨ ، الاستشراق ص٥٨-٥٩)

(٢) الوجه الآخر لطه حسين . أنور الجندي ص٩ . دار الاعتصام . القاهرة.

ولقد اكتشف – أخيرا – في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، أن أحد المستشرقين الفرنسيين يسمى " دوديه " ، أسندت إليه الجامعة تدريس مادة " تاريخ المجتمع العربى " – فى العام الدراسي ٩٧ / ١٩٩٨ م – وهي مادة تدرس لجميع الطلبة ، وقد أضاف إلى المقرر دراسة كتاب "محمد" للمستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون ، مترجما إلى الإنجليزية (١) .

والكتاب يطفح بعبارات السوء والبهتان في حق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وقد كشف عن هذه الجريمة الكاتب صلاح منتصر فى جريدة الأهرام ، وطالب بوقف الكتاب ، ولنترك له الكلام ، وهو يتحدث عن تلك الجريمة ، فيقول :

... وندخل في الموضوع مباشرة ، ففى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، يصر أستاذ مادة تاريخ المجتمع العربى ، وهى مادة تدرس لجميع الطلبة على أن يضيف إلى المقرر كتابا جديدا هو كتاب (محمد) ، وهو من أسوأ ما كتبه الكاتب الفرنسى ماكسيم رودنسون ، وقد طلب ، من الطلاب استيعابه وتلخيصه ، بعد أن وزع على الطلبة مترجما إلى الإنجليزية في ٣٨١ صفحة .

وعلى الرغم من أن الطلبة الذين أفزعهم ما قرأوه في الكتاب

---

(١) الفرنسي السافل في الجامعة الأمريكية – محمد القدوسي بتصرف مقال بجريدة الشعب القاهرية ص٢ عدد ١٢٦٠ ، الثلاثاء ٢٣ من محرم ١٤١٩هـ ١٩ مايو ١٩٩٨ ، والكتاب المذكور ترجمته إلى الانجليزية "آن كارتر " في عام ١٩٧١ وطبعته في نيويورك دار " راندوم " . السابق.

حاولوا الاحتجاج ، إلا أن إدارة الجامعة بكل أسف لم تتخذ أي إجراء .

والكتاب فيه أكثر من ٥٠ فقرة تستفز أى مسلم ، لكننى أكتفى بنماذج منها :

- في صفحة ٧٨ : يقول المؤلف : " إن محمدا تزوج من السيدة خديجة كي يخرج من الفقر ، ويضمن مستقبلا مزدهرا ، وأنه كان يعاني كبتا (عقد نفسية) فى طفولته بسبب اليتم والفقر ، فتعلق بهذه الزوجة على الرغم من أنها لم تشبع نزواته الجنسية .
- في صفحة ١١٥ : يحاول المؤلف تأكيد أن القرآن من اختراع محمد ، وأنه يأتى بالآيات وفقا لهواه ، ويقول : نظرا لأن محمد تزوج من السيدة خديجة التى كانت تكبره سنًا ، وأنها تزوجت قبله مرتين ، فقد جاءت الآيات تواسيه بقولها ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ (١) ..!
- وفي صفحة ١٥١ : يقول المؤلف : إن قصص القرآن ما هي إلا ترديد لما تعلمه محمد وسرقه من الأديان السابقة ، ومن الكتب اليهودية
- زفي صفحة ١٦٢ : يقول المؤلف : إن في آخر الرسالة أصبحت لغة القرآن أقل عصبية وأكثر هدوءا .
- وفي صفحة ٢٥١ : يقول المؤلف :

إن السور القرآنية التى نزلت في المدينة تغيّر مضمونها ، وأصبح القرآن شبه جريدة يومية تنشر فيها التعليمات الخاصة بالقوات ، والأحكام الخاصة بالنظام الداخلى للدولة ، ويضيف المؤلف " إن هذا النثر الذي صيغ به القرآن مملوء بالتكرار والأخطاء اللغوية " .

---

(١) سورة الضحي : ٤ .

- وفي صفحة ٣٣٨ : يقول المؤلف : لقد بقى القرآن بعد محمد ، وهو نتاج عقله الباطن الذي ابتدع نوعا غريبا من الشعر .

هذه بعض نماذج مما ورد في الكتاب ، فهل يمكن أن يسمى هذا حرية تفكير تعلمها الجامعة لطلبتها ؟ هذا كتاب يجب وقف تدريسه فورا فقضيته لاتقبل المساومة (١) .

ومن البذاءت التى حملها الكتاب أيضا:

- يقول المؤلف في صفحة ٥١ : " كان من سوء الحظ أن شعر (أى محمد) تجاه خديجة بالعاطفة الطبيعية ، التى أرواها بعد ما تقدمت به السن مع النساء الشابات والمحبوبات في حريمه "

ونلاحظ هنا استخدام الكتاب للفظ Procure ومن معانيه : يعمل قوّاداً ويجلب النساء للزنا ، مع إمكانية استخدام ألفاظ أخرى ، وكذلك استخدام لفظ الحريم ، لكنها السفالة تأبى إلا أن تختار ألفاظها .

- وكأن المؤلف عز عليه أن يترك ذنبا أو نقيصة دون أن يلصقها بالنبي ، فقال في صفحة ٥٥ :

" كان محمد مرتبطا بأم أولاده بروابط أقوى من أى وثيقة ، رغم ما عرفناه من ميوله الغرامية بعد ذلك ، ويصعب أن نتخيل أوقاتا كثيرة مرّ بها دون أن يكون مستحقا للعبارة الانجيلية التى كان سماعها

---

(١) كتاب يجب وقفه . صلاح منتصر . جريدة الأهرام ص١١ العدد ٤٠٧٠٠ ، الأربعاء ١٧ محرم ١٤١٩هـ ١٣ مايو ١٩٩٨م .

سيفزعه لو سمعها ، وهى أنه " ارتكب الزنا فى قلبه. " .

... كان عليه أن يتجنب الإغراءات عدة مرات ربما ببساطة خادعة ، ولكن بصرف النظر عن بساطة أو صعوبة الأمر فإننا نعرف كم كلفه التغلب على نداء الغريزة الذي ربما يكون قد نجح في التخلص منه "

هل تحتاج هذه الفقرة إلى تعليق ؟ هل هناك سفالة أكبر من " ارتكب الزنا في قلبه " ؟ بل والتشكيك في نجاحه في التغلب على " نداء الغريزة " (١) .

وقد أصدرت دار الإفتاء المصرية بيانا ردت فيه على بعض أكاذيب رودنسون في الكتاب المشار إليه ، ثم قالت في ختام البيان " وبدلا من أن يندس هذا الأستاذ (تقصد دوديبيه) بين جدران الجامعة الأمريكية ، وينفث سمومه بين طلاب ما زالوا في بداية حياتهم الدراسية ، وهم غير مؤهلين علميا لمناقشته والرد عليه ، يجب عليه أن تكون لديه الشجاعة الأدبية ، ويبرز ليناقش أهل العلم ويرى القادرين على إفحامه ، وقطع لسان السوء عنده ومن هم على شاكلته " (٢) .

ولقد أمر وزير التعليم العالي (٣)على الفور بوقف تدريس الكتاب في الجامعة الأمريكية ، ولكن هذا وحده لم يكن كافيا ، بل كان من

---

(١) الفرنسى السافل في الجامعة الأمريكية ، محمد القدوسي (مرجع سابق) .

(٢) الأهرام ص١٠ ، عدد ٤٠٧٠٣ . السبت ٢٠ محرم ١٤١٩هـ ، ١٦ مايو ١٩٩٨م .

(٣) هو الأستاذ الدكتور مفيد شهاب .

الواجب طرد هذا الفرنسي الحقير " دودييه " وترحيلـه مـن بلـد الأزهـر فوراً ، بل ومحاكمته ومعاقبته علـى إساءته وتطاولـه علـى مقـام النبـى صلى الله عليه وسلم ، وتحقيره لأمة وعقيدتها ، ليكون عـبرة لأمثالـه ، كما حـاكمت بلـده (فرنسـا) التـى تزعـم أنهـا موطـن حريـة الفكـر والتنويـر ؛ حـاكمت المفكـر المسـلم رجـاء جـارودي لمجـرد أنـه فضـح أكاذيب اليهود ، وأبطل ادعاءاتهم فيما يتعلق بالمحرقة التى يزعمون أن هتلر صنعها لهم ، وفيما يتعلق بأنهم أصحاب حـق فـي فلسـطين - كمـا يزعمون - ومع أن جارودي كان يتكلم بالحجة والبرهـان ، فضـلا عـن أنه لم يكن الوحيد فيما ذهب إليه من رأى ، بل هناك مفكرون غربيـون يرون رأيه ؛ إلا أن فرنسا الحاقدة حاكمته وعاقبته ، فكانت محاكمة هذا المتطاول على الرسول فى بلدنا ومعاقبته أولى .

خامسا : المؤتمرات :

وقد اتخذ المستشـرقون مـن المؤتمـرات وسيلة لطـرح أفكـارهم ، ونشر آرائهم، وتقوية أواصر التعاون، وزيادة فرص التنسيق فيما بينهم

وقد عقدوا عشرات المؤتمرات التى اشترك فيها جموع غفيرة مـن المستشرقين من بلدان وجامعات شتى ، ناقشت مئات القضايـا والبحـوث المتعلقـة بالشـرق فـي كافـة جوانبـه ، وخاصـة مـا يتصـل بالدراسـات الإسـلامية ، وهـذه المؤتمـرات منهـا مـا هـو دولـيّ ، ومنهـا مـا هـو إقليمي .

" ومنـذ أواخـر القـرن التاسـع عشـر طفق المستشـرقون يعقـدون المؤتمـرات الدوليـة مـرة كـل ثـلاث سنوات أو سنتين أو بعـد أربـع ، وتشرف على تنظيم كل مؤتمر لجنة من علماء الدولـة التـى يعقد فيهـا،

لبحث جدول أعماله ، ولها زيادتها أو انقاصها، وتحديد موعد انعقاده ومدته .

ويضم المؤتمر مئات العلماء من أعلام المستشرقين وأقطاب الوطنيين في الغرب والشرق (فقد اشترك في مؤتمر اكسفورد (١) ٩٠٠ عالم عن ٢٥ دولة ، و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية) .

وينقسمون إلى أربع عشرة جماعة تنفرد كل منها بقسم من جدول الأعمال وهي :

الدراسات المصرية القديمة ، والدراسات الآسوية البابلية وآثار الشرق الأدنى والعهد القديم ، وآثار الكتاب المقدس ، والشرق المسيحي ، وبيزنطة ، والدراسات السامية ، والدراسات الإسلامية (اللغة والأدب) ، والدراسات الإسلامية (التاريخ والفن) ، والدراسات التركية ، والدراسات الخاصة بإيران والقوقاز وما جاورهما ، والدراسات الهندية ، ودراسات آسيا الوسطى ، ودراسات آسيا الشرقية ، ودراسات آسيا الشرقية الجنوبية ، والدراسات الأفريقية.

وجدول المؤتمر وما يضاف إليه من خطب وأبحاث وآراء ومقترحات تنشر في مجلدات بعنوان أعمال المؤتمر ، يهتدى بها كنظم ومناهج ووسائل للمضي في هذه الحركة العالمية ، كما تصبح أصولا وأمهات وأسانيد للباحثين " (٢) .

---

(١) عقد سنة ١٩٢٨م .

(٢) المستشرقون ٣/ ٣٦٧-٣٧٠ باختصار.

وقد عقد المستشرقون منذ عام ١٨٧٣م إلى عام ١٩٧٦م ثلاثين مؤتمرا دوليا ، بالإضافة إلى بعض المؤتمرات الإقليمية أو الجامعية ، مثل مؤتمر المستشرقين السوفييت (لينينجراد ١٩٣٥ - ١٩٣٧) وحلقة المستشرقين في بروكسل ، حيث نشرت ابحاثها في كتاب بعنوان : تطور العقيدة الإسلامية (باريس ١٩٦٢) (١) .

وقد أحصى العقيقي مؤتمرات المستشرقين الثلاثين الدولية من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٩٧٦ ، فذكر مكان كل واحد منها ، وتاريخ انعقاده ، وحجم أعماله كأن تكون مجلدين أو ثلاثة أو خمسة ، وهكذا ، كما قدم نماذج من دراستها فذكر نموذجا من جدول أعمال المؤتمر الخامس عشر الذي كان مخصصا للشئون التاريخية ، والذي انعقد في كوبنهاجن سنة ١٩٠٨ ، ونموذجا آخر لجدول أعمال المؤتمر الرابع والعشرين الذي خص باللغات الشرقية قديمها وحديثها ، والذي انعقد سنة ١٩٥٧م في ميونيخ (٢) .

---

(١) السابق ٣/ ٣٦٥ وما بعدها باختصار وتصرف . هذا ، ولايستطيع المرء أن يخفى تعجبه واشمئزازه من إصرار المستشرقين على ما يطلقون عليه " تطور العقيدة الإسلامية " ، فهذا الأمر لاوجود له إلا في خيالهم ، فالعقيدة الإسلامية - سواء أكانوا يعلمون أم لايعلمون - واحدة منذ أن أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم حال بعثته ، وواضحة دعا إليها دون مواربة ، ولم يطرأ عليها تغيير أو إضافات ولم يصبها تطور كما يزعم هؤلاء المستشرقون ، بل هي واحدة منذ آدم ومن جاء بعده من الرسل والنبيين عليهم صلوات الله وتسليماته ، فهي قضية منتهية ومحسومة بكل وضوح ، ومع هذا يجعلون منها مادة تلوكها ألسنتهم بالنقاش وتتناولها أقلامهم بالبحث في كتاباتهم ومؤتمراتهم !

(٢) أيضا : نفس المرجع

سادسا : الاشتراك في المجامع العلمية الرسمية في العالم الإسلامي :

ولقد استطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى بعض المجامع العلمية الرسمية في بعض البلاد الإسلامية ، كمصر ودمشق وبغداد ، وهم يعتبرون التمثيل في هذه المجامع وسيلة لتحقيق أهدافهم ، حيث يعملون جاهدين على تحويل هذه الأهداف إلي مناهج براقة ، تتدثر بعباءة البحث العلمي ، سواء فى الدعوة إلى إحياء العاميات ، أو الدعوة إلى تعديل النحو العربي ، أو اللغة الوسطى أو الكتابة العربية المعاصرة ، وكلها محاولات ترمى إلى إيجاد فجوة بين لغة القرآن ولغة الكتابة ، ولقد سبق لهم أن تسللوا من قبل للبحث عن العاميات ، ولبسوا ملابس التجار والدبلوماسيين ، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لجمع الأمثال العربية والمواويل ، بهدف مسموم هو الزعم بأن العامية لغة لها تراث (١) .

ثم إن اشتراكهم في المجامع اللغوية والعلمية الرسمية ، واهتمامهم باللغة العربية ؛ يرجع في بعض أسبابه إلى التمهيد للحملات الاستعمارية ، ومحاولة فهم الشرق الإسلامي من جميع نواحيه ، وإدارك أسرار الشعوب التى يتسلطون عليها ، ومعرفة مكامن القوة والضعف لديها ، ولاشك في أن دراسة اللغة تعين على تحقيق هذا كله.

ومن المستشرقين الذين اشتركوا في المجمع اللغوى بمصر ؛

---

(١) انظر تفصيل هذا الكلام وأدلته فى : مقدمات العلوم والمناهج . أنور الجندى ٥٩/٤ وما بعدها .

جب ، ومرجليوث ، ونيكلسون ، وثلاثتهم من انجلترا ، ولوى ماسنيون الفرنسي (١) .

ومنهم أيضا : أ.ج . فينسينك ، وهو عدو لدود للإسلام ، كان عضواً بالمجمع ، ثم أخرج منه على إثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب حسين الهوارى . مؤلف كتاب (المستشرقون والإسلام ، صدر في سنة ١٩٣٦) ، وحدث بعد ذلك أن نشر فينسنك رأيه فى القرآن والرسول ، مدعيا أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التى سبقته (٢) .

ومن المستشرقين الذين اشتركوا في المجمع العلمي بدمشق : جريفني الإيطالي ، وجوتهيل الكولومبي ، وجويدي الإيطالي ، وجي سو الفرنسي ، ونالينو الإيطالي ، وهارتمان ألماني الأصل ، وم . هوتمان الهولندي ، وكذلك ماسنيون ومرجليوث (٣) .

وجدير بالذكر أن تلك الأسماء السابقة التى اشترك أصحابها في مجمعي القاهرة ودمشق ، من أصحابها من عرف عنهم العداوة الشديدة والكراهية للإسلام ولغة القرآن ، من خلال كتاباتهم ومواقفهم ، بل إن بعضهم لايعد من المستشرقين المعادين للإسلام فحسب ، وإنما من المتطرفين فى عداوته ، مثل ماسنيون ومرجليوث ، وفينسينك .

ونشير على سبيل المثال لعداوة أحدهم للغة العربية ، وهو

---

(١) الاستشراق والتبشير إبراهيم خليل أحمد ص٦١ باختصار وتصرف .

(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٥٠ .

(٣) الاستشراق والبشير ص٦١-٦٢ باختصار وتصرف .

ماسنيون ، وقد عمل مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شمال أفريقيا ، وكان الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر . وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى (١) .

" نجد محاضرة ماسنيون الشهيرة عام ١٩٣١ في بيروت للدعوة إلى العامية ، وإلى كتابة هذه العامية بالحروف اللاتينية ، وكان قد ألقاها قبل ذلك في جمع من شباب العرب في باريس عام ١٩٢٩.

ولقد وقف ماسنيون يخطب في بيروت ، وكان همه أن يبث سمومه في الشباب السوري ، فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية ، فيا سعادة الشرق العربى عندما تصير اللغة العربية إلى ماصارت إليه اللغة اللاتينية

وقال هذا المستشرق في محاضرة له في الكوليج دي فرانس . إنه لا حياة للغة العربية إلا إن كتبت بحروف لاتينية " (٢) .

" من هذا يستطيع المرء أن يدرك مدي خطورتهم وتداخلهم في المجالات العلمية ، وهم يعملون وفق خطة مدروسة ، حيث يجتمعون في هيئة مؤتمرات بين الحين والحين " (٣) .

إن الإنسان ليندهش من وجود أمثال هذا المستشرق في مجامع

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص٤٥٠ بتصرف .

(٢) مقدمات العلوم والمناهج . أنور الجندي ٤/ ٦٢.

(٣) الاستشراق والتبشير ص٦٢.

اللغة العربية ، التي تشكلت للحفاظ على اللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، ومواجهة التحديات التي تصدر عن خصومها ، وحراستها من عاديات أنصار العامية ، سواء أكانوا من المستشرقين أم من أتباعهم وأذيالهم في بلادنا .

ومن ناحية أخرى فإن المستشرقين لايمكن أن يصلوا إلى درجة إتقان اللغة العربية ، وفقه البيان العربي ، وإدراك أسرار البلاغة العربية ، بدرجة تؤهلهم لأن يكونوا في مصاف علماء اللغة المقتدرين ، فضلا عن أن علماءنا في مجال اللغة كُثْر والحمد لله ، فلسنا في حاجة ألبته إلى هؤلاء الأعاجم.

تقول الدكتورة بنت الشاطئ : إن اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم ، ومهما أتقنوها وأجادوا تعلمها ، فهم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها ، ويحول تركيبهم الاجتماعي وتكوينهم الحضاري دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من شفافية وحسن وأسرار مبثوثة ، وهذا أوقع بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى إصدار أحكام مجحفة سجلوها ظلما على مفاهيم الإسلام ، فادعى فيليب فونداس أن الأموال عند المسلم من أصل شيطان نجس ، استناداً على الآية الكريمة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ...) (١) ، وادعى آخرون أن الحكم الديني الإسلامي كان ينظر إلى المحكومين الأعاجم كقطيع من الغنم ، ويستنبط هذا الاكتشاف من فهم لمعنى الراعي والرعية (٢) .

---

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٢) مقدمات العلوم والمناهج ٤ / ٦٣ ، وانظر الاستشراق والمستشرقون للسباعي=

بل إن جهل بعضهم المطبق باللغة العربية ، أوقعهم في تفسيرات خاطئة ومضحكة في آن واحد .

يقول العقاد حاكيا بعض تفسيراتهم الخاطئة لكثير من أمور اللغة والدين :

" ومنها ما كتبه بعض المستشرقين تفسيرا لاسم أبي بكر رضى الله عنه من أنه " أبو العذراء !! "

ومنها ما قالوه في تفسير لمعنى " القصيد " من أنه القصود .

ومنها ما تورط فيه ذلك المستشرق من خطأ معيب في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ [1] بقوله : " أى بدون أحذية !! " [2] .

"والصعيد معناها السعيد كما فى دائرة المعارف البريطانية " [3].

ويعلل العقاد ذلك قائلا : " ذلك أنهم على غير علم دقيق باللغة العربية ، وليس هذا غريبا ، فهم لايفهمون أدب أمتهم ، ولايجيدون

= ص ٦٤، حيث ذكر أن ممن فهم هذا الفهم لمعنى الرعية المستشرق بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) وقد رد عليه الدكتور السباعي بما بدد شبهتة وسوء فهمه .

(١) سورة الزمر : ٧٥ .

(٢) الإسلام دعوة عالمية . عباس العقاد . مجموعة الأعمال الكاملة جـ٦ص١٩٤-١٩٥. دار الكتاب اللبناني . بيروت ط الأولي ١٩٧٤م.

(٣) اوربا والإسلام د/ عبدالحليم محمود، ص١٣٧، دار المعارف، القاهرة، ط الرابعة .

معرفة هذا الأدب في لغتهم ، فمن باب أولى ألا يحسنوا فهم الأدب العربي !

وقد كانت لهم مكانة أكثر مما يستحقون ، حتى وقفنا أمامهم ووضعناهم في موضعهم ! " (١) .

ألا ليت المفتونين بأولئك المستشرقين ، يخففون من غلوائهم وافتتانهم بهم ، ويضعونهم في أحجامهم الطبيعية ، بعد الذي تكشف من أخطائهم وتعصبهم وجهلهم.

سابعا : استخدام تلاميذ المستشرقين والمبشرين من الوطنيين :

ومن أخطر الوسائل وأخبثها فى نشر وإذاعة الفكر الاستشراقى المعادى للإسلام ؛ استخدام بعض الوطنيين العرب والمسلمين من تلاميذ المستشرقين والمبشرين ليقوموا بهذا الدور نيابة عنهم ، والترويج لآراء المستشرقين والمبشرين من غير نسبتها إليهم ، بل على أنها من نتاج قرائح أولئك التلاميذ والعملاء ، وثمرة اجتهادهم وتفكيرهم ، بينما هي فى واقع الأمر لاتعدو أن تكون صدى لآراء وسموم خصوم الإسلام .

وأعداء الإسلام – بشكل عام – يحرصون دائما على إيجاد صنائع أو عملاء لهم من أبناء البلاد الإسلامية والعربية ، يدربونهم ويعدونهم ويصنعونهم على أعينهم ، لينوبوا عنهم فى الكيد للإسلام ومحاربته عبر

---

(١) الاسلام دعوة عالمية (الموضع السابق)

مجالات شتى ، فلهم عملاء يكيدون للإسلام فى مجال السياسة ، ومثلهم فى مجالات الفكر ، وآخرون فى مجالات التعليم والإعلام والثقافة ، وهكذا ..

وهذا الأمر لا يأتى عفويا أو عرضا ، وإنما هو ثمرة تخطيط وتآمر ، كما أنه محل عنايتهم ورعايتهم ، ومتابعة متواصلة من جانبهم ، وهذا ما أفصح عنه المستشرق المبشر صمويل زويمر بقوله : " تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها " (١)

وهذه شهادة واحد من دعاة التخريب والإفساد فى العالم ، وهو الوجودى الانحلالى جان بول سارتر ، تكشف عن اهتماماتهم بصناعة "المفكر المستغرب" الذى يقوم بترديد آراء الغربيين ، وتسويقها بين قومه الشرقين ، وهى فى ذات الوقت شهادة واحد من أهلها ، فيقول مشيراً إلى بعض طرق صناعة المفكر الشرقى فى الغرب ، ومجال استخدامه :

" كنا نحضر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا ، ونطوف بهم بضعة أيام فى إمستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس ، فتتغير ملابسهم ، ويلتقطون من بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ، ويتعلمون منا طريقة جديدة فى الرواح والغدو ، ويتعلمون لغتنا ، وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا ، وكنا ندبر

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص : ٣٠ .

لبعضهم أحياناً زيجات أوربية ، ثم نلقنهم أسلوب الحياة الغربية .. كنا نضع فى أعماق قلوبهم الرغبة فى أوربا ، ثم نرسلهم إلى بلادهم ، وأي بلاد !! .. بلاد كانت أبوابها مغلقة فى وجوهنا ولم نكن نجد منفذاً إليها ، كنا بالنسبة إليها رجسا ونجسا لكن منذأن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم ، كنا نصيح من إمستردام أوبرلين أو باريس : "الإخاء البشرى" فيرتد رجع أصواتنا من أقاصى أفريقيا والشرق الأوسط أو شمالىّ أفريقيا .. كنا نقول : " ليحل المذهب الانسانى أو دين الإنسانية محل الأديان المختلفة " وكانوا يرددون .. هذه أصواتنا من أفواههم وحين نصمت يصمتون ! إلا أننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين (!!) لا يقولون كلمة واحدة غير ما وضعنا فى أفواههم ! " ([1]).

ويقول المستشرق ماسنيون :

"إن هؤلاء الطلاب المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة ، حتى يكونوا أعواننا لنا فى بلادهم " ([2]) .

بل إن سدنة الاستشراق والتبشير فى الغرب ، لا مانع لديهم من

---

(١) شبابنا فى وجه الإعصار الغربى . عبدالقادر عبار. مجلة الأمة. ص ٢١ .تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية فى قطر . العدد الخمسون السنة الخامسة صفر ١٤٠٥ هـ نوفمبر ١٩٨٤م.

(٢) من التبعية إلى الأصالة فى مجال التعليم واللغة والقانون . أنور الجندى ص ١٦ ، دار الاعتصام . القاهرة .

منح بعض أبناء المسلمين الدرجات أو الشهادات العلمية من إحدى جامعات الغرب ، مثل الماجستير والدكتوراه ، بسهولة ويسر فى مقابل أن يكون جندىَّ فكرتهم المخلص .!

ففد نقل أحد الباحثين عن كتاب " المشكلة الشرقية " طبع لندن سنة ١٩٥٧ صفحة ١٤٦ مايلى : (١)

" لا شك أن المبشرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشلوا تماما ، ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية ، فيجب أن تختار طلبة من ذوى الطبائع الضعيفة والشخصية الممزقة ، والسلوك المنحل من الشرق ، ولا سيما من البلاد الإسلامية ، وتمنحهم المنح الدراسية ، حتى تبيع لهم الشهادات بأى سعر ، ليكونوا المبشرين المجهولين لنا لتأسيس السلوك الاجتماعى والسياسى الذى نصبوا إليه فى البلاد الإسلامية . إن اعتقادى لقوىَ بأن الجامعات الغربية يجب أن تستغل استغلالا تاما جنون الشرقيين للحصول على الدرجات العلمية والشهادات ، واستعمال أمثال هؤلاء الطلبة كمبشرين ووعاظ ومدرسيين لأهدافنا ومآربنا باسم تهذيب الإسلام والمسلمين " أ هـ .

إن هؤلاء المتغربين الذين هم عملاء الاستشراق والتبشير أخطر على الأمة من أعدائها السافرين ، حيث إنهم يستترون خلف أقنعة

---

(١) غزو فى الصميم عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ص ٧٠ - ٧١ . دار القلم . دمشق ط الثانية ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م وله أيضاً ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير الإستشراق . الاستعمار ص ٢٦٢ . دار القلم دمشق . ط الثالثة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.

مموّهة ، ويندسون فى صفوف الأمة ينخرون فى عظامها كالسوس ، ولا يلتفت إلى خطرهم أو يُتفَطَّن إليهم إلا بعد حين . شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم من المنافقيين .

ولقد عرفت البلاد الإسلامية فى العصر الحديث طائفة من المفكرين المتغربين ، كانوا أبواقا يرددون إفك المستشرقين والمبشرين ، وضلالهم ، وينفثون سمومهم الفكرية على أنها آراؤهم هم ، زعموا أنهم توصلوا إليها بعد بحث ودراسة ، ثم لم تلبث الأمور طويلا ، فإذا الحقيقة أنهم يجترون أباطيل ومفتريات أساتذتهم من المستشرقين والمبشرين .

ومن هؤلاء المتغربين "طه حسين" الذى كشف الباحثون والعلماء عن حقيقة آرائه التى نال بها من الإسلام وقرآنه وعظمائه وتاريخه ، وأثبتوا أنها ترديد لأفكار أساتذته المستشرقين الماكرين ، من أمثال مرجليوث ، ودوركايم ، وجب ، وغيرهم .

ومن كتبه التى امتلأت بالباطل والزيف ؛ كتاب " الشعر الجاهلى " وقد أثبت الباحثون أنه منقول عن كتاب فى الشعر الجاهلى للمستشرق مرجليوث ، لدرجة أن الأستاذ محمود محمد شاكر أطلق على كتاب طه حسين المذكور " حاشية طه حسين على بحث مرجليوث " (١) كما عقد الدكتور محمد البهي مقارنة بين ما كتبه طه حسين فى كتابه هذا ، وبين

---

(١) مؤلفات فى الميزان أنور الجندى ص ٣٧ . هدية مجلة منار الإسلام الإماراتية . العدد الخامس السنة الحادية عشرة (تصدرها وزارة الشئون الإسلامية بالإمارات العربية المتحدة) .

ما كتبه المستشرق " جب " فى كتاب " المذهب المحمدى " وانتهى من تلك المقارنة العلمية الموضوعية إلى أن الأهداف والنتائج واحدة لدى كليهما ([1]) .

ومن الآراء الخطيرة التى ذهب إليها فى هذا الكتاب:

أن العرب " لم يكونوا على دين ، ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ، ولم يكونوا فى عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس إلى الأمم الأخرى .. كذلك يمثلهم القرآن ، وإذا كانوا أصحاب علم ودين وأصحاب ثروة وقوة وبأس ، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة - متأثرين بها مؤثرين فيها - فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجيه ! وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر فى أمة جاهلة همجية " ([2])

وهو " يريد أن يفهم قارئه أن القرآن انطباع للحياة القائمة فى وقت صاحبه - وهو النبى ... وهو يمثل لذلك بيئة خاصة : فى عقيدتها ولغتها ، وعاداتها فى الحياة ... وهى البيئة العربية فى الجزيرة

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ١٩٠ - ١٩٢.

(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص ١٨٤ نقلا عن الشعر الجاهلى ص ١٥ ، هذا وكلام طه حسين السابق مناقض لكلام رب العالمين إذ يقول سبحانه :" هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (سورة الجمعة ٢) ، فالآية تفيد أن العرب كانوا أميين جاهلين فى تيه وضلال ، وهم لذلك كانوا فى أمسّ الحاجة إلى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

العربية (١)

" ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام دراسة علمية ، كان يدور عند صاحب كتاب " الشعر الجاهلى ، بين أمرين لا ثالث لهما : بين ما يسمى بالشعر الجاهلى وبين القرآن ... كلاهما للإنسان وكلاهما يتحدث عن الحياة العربية الجاهلية ! ولكنه استبعد الشعر الجاهلى واختار القرآن لهذه الدراسة لأنه صادق فى كونه (انطباعا) دقيقا لهذه الحياة ! القرآن إذن مصنوع ومؤلف .

هو مرآة لأفق خاص من الحياة فى شبه الجزيرة العربية وهى مكة بوجه خاص " (٢) .

ومما قاله فى كتابه هذا بالنص : " للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى " (٣)

ويقول أيضاً : " أمر هذه القصة (قصة إسماعيل) إذن واضح ... فهى حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب دينى ، وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى ! (٤) .

---

(١) السابق ١٨٦.

(٢) أيضا ص ١٨٧.

(٣) العالم الإسلامى والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجرى . فتحى يكن.ص ١١٩ مؤسسة الرسالة بيروت .ط الثالثة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م ، نقلا عن كتاب الشعر الجاهلى ص ٢٦.

(٤) الفكر الإسلامى الحديث ص ١٨٩.

وقد كلف الأزهر لجنة من كبار علمائه – فى ذلك الوقت – لدراسة كتاب " الشعر الجاهلى " فقامت بذلك ورفعت تقريراً لشيخ الأزهر قالت فيه : " إن الكتاب مملوء بروح الإلحاد والزندقة ، وهو دعامة من دعائم الكفر ومعول لهدم الأديان ، وفندت اللجنة شبهات وأوهام المؤلف ، ووضعت النقاط على الحروف باسلوب علمى رزين ، وكتب الشيخ عبد ربه مفتاح – أحد أعضاء اللجنة – مقالا نشرته صحيفة الكواكب يقول فيه لطه حسين :" إن العلماء أجمعين ، وعلى بكرة أبيهم يحكمون عليك بالكفر ، وبالكفر الصريح الذى لا تأويل فيه ولا تجوز ، وأتحداك أن تدلنى على عالم واحد يحكم عليكم بالفسوق والعصيان دون الكفر ، وعليك تبرئة نفسك من هذا الاتهام الشائن ... " (١)

هذا ، ولم يثبت أن طه حسين قد رجع عن شئ مما قاله آنف الذكر أو أمثاله فى كتبه الأخرى .

ومن الذين كانوا وسيلة لنشر سموم المستشرقين – على شاكلة طه حسين – ؛ على عبد الرازق صاحب كتاب " الإسلام وأصول الحكم " ، الذى زعم فيه أن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة ولا علاقة لها بشئون السياسة والحكم .

" لم يكن على عبد الرازق نفسه إماما مجتهداً .. وإنما كان قاضيا شرعيا تلقفته قوى التغريب فاصطنعته تحت اسم (التجديد) ، ودعى

---

(١) الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين فى (الشيخان) . إعداد د/ جمال عبد الهادى ، د / وفاء محمد رفعت ، أستاذ / على لبن ص ٨٢ دار الوفاء المنصورة.

علـى عبـد الـرازق إلـى لنـدن لحضـور حلقـات الاستشـراق التـى تـروج للأفكار المعارضة لحقيقة الإسلام وهدم مقوماته .. وأهـدى هـذا الكتـاب الـذى وضـع عليـه اسـمه مترجمـا إلـى اللغـة العربيـة ، وطُلـب إليـه أن يضيف إلى مادته بعض النصوص العربيـة التـى يسـتطيع اقتباسـها مـن كتب الأدب .

أما الكتاب نفسه فكان من تأليف قَـرْمٍ (١) مـن أقـرام الأستشـراق ، وداهية من رجال الصهيونية واليهوديـة العالميـة ، وهـو (مرجليـوث) الذى تقضى الصدف أن يكون صاحب الأصل الذى نقل عنه طه حسـين بحثه عن (الشعر الجـاهلى) والـذى أطلـق عليـه محمـود محمـد شـاكر (حاشية طه حسين على بحث مرجليوث) ، ويمكن أن نطلق الآن اسـم (حاشية على عبد الرازق على بحث مرجليوت) وقـد كشـف عـن هـذه الحقيقة الدكتور ضياء الدين الريس فـى بحثـه القيـم (الإسـلام والخلافـة فى العصـر الحديـث) . (٢)

وقد قدم الدكتور الريس أدلة قويـه ترجـح وتثبـت أن أصـل كتـاب علي عبد الرازق هو بحث لمرجليوث . (٣)

وكان " أول من كشف حقيقة الكتاب هـو الشـيخ (محمـد بخيـت) الـذى رد علـى الشـيخ علـي عبـد الـرازق فـى كتابـه (حقيقـة الإسـلام

---

(١) القَرْم من الرجال : السيد المعظَّم . المعجم الوسيط ٢ / ٧٥٨

(٢) إعادة النظر فى كتابات العصريين فى ضوء الاسلام . أنـور الجنـدى ص ٥٥-٥٦ ، دار الاعتصام . القاهرة

(٣) راجع السابق ص ٥٩ - ٦١.

وأصول الحكم) وهو واحد من الكتب التي صدرت في الرد عليه .. حيث قال :

(لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له منه الا وضع اسمه عليه فقط .. فهو منسوب إليه فقط .. ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار ، وألبسوه ثوب الخزى إلى يوم القيامة) (١)

وقد انعقدت هيئة كبار العلماء برئاسة المرحوم الشيخ محمد أبي الفضل الجيزاوى ، شيخ الأزهر في ذلك الوقت ، صباح الأربعاء ٢٢ المحرم ١٣٤٤ هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ م) وكان عدد أعضائها أربعة وعشرين عالما ، وبعد مناقشة طويلة أصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم وإخراجه من زمرة العلماء . (٢)

إن إذاعة سموم الاستشراق وآرائه على يد أسماء وطنية ، وخاصة إذا كانت مسلمة عربية ، لا يثير الانزعاج أو القلق والحساسية لدى القارئ المسلم ، مثل ما يثيرها لو كان يقرأ أو يعلم أن هذا الكلام لمستشرق حاقد كاره للإسلام ، ولا شك أن هذه الوسيله أشد مكراً وأكثر خداعاً وتمويها ، ويعرف خطورتها جيداً المستشرقون وأذيالهم .

يروي الدكتور مصطفى السباعى ، ماسمعه من الدكتور علي حسن عبد القادر ، لمّا ثار النقاش في الأزهر حول الإمام الزهرى عام

---

(١) أيضا ص٥٦ .

(٢) العالم الإسلامى والمكائد الدولية ص ١٠٩ باختصار .

١٣٦٠ هـ ، أن الأستاذ أحمد أمين قال للدكتور علي حسن ، وهو الذى أثيرت الضجة حوله : " إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة ، فخير طريقة لبث ماتراه مناسبامن أقوال المستشرقين ، ألاتنسبها إليهم بصراحة ، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك ، وألبسها ثوبا رقيقا لا يزعجهم مسّها ، كما فعلت أنا في " فجر الإسلام وضحى الإسلام " (١)

وهكذا ينفث المستشرقون سمومهم ، ويضعون الشبهات والأباطيل ثم يسخّرون كتّابا عربا ومسلمين ، درسوا بجامعاتهم وتشربوا مبادئهم ، لنشرها وترويجها فى تدليس وخداع يُلبِس الباطل ثوب الحق ، ويجعله يتسلل إلى نفوس الناس دون قلق أو حساسية ، ويسرى بينهم فى نعومة وصمت .

ثامناً : إرساليات التبشير فى العالم الإسلامى :

ولقد غدا من الحقائق الراسخة أن الاستشراق يخدم من بين ما يخدم : التبشير – وفيما سبق من فصول هذا الكتاب دلائل كثيرة على ذلك – وأن العلاقة بينهما علاقة انسجام ووئام وتنسيق لخدمة أهداف واحدة لكلا الجانبين ، بل ليس من المبالغة القول بأن الإستشراق والتبشير وجهان لعملة واحدة ، إذ يتفقان فى ضرورة مقاومة الإسلام ، ومحاولة إضعافه وإيقاف نشره ، وإخراج المسلمين منه أو صرفهم عن التمسك بتعاليمه وتشريعاته ، بوسائل كثيرة ، من بينها وسيلة حرب

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ٢٨٣ ، وجدير بالذكر أن الدكتور السباعى قد فند شبهات أحمد أمين ورد عليها بأسلوب علمي موضوعي .

الكلمة التى تحمل فى مضمونها الفكر المعادى للإسلام .

وتقوم إرساليات التبشير فى العالم الإسلامى بدور كبير فى " تسويق " أو ترويج ونشر الفكر المعادى للإسلام ، الذى أنتجه الاستشراق ، وسود به المستشرقون آلافاً من الكتب والمجلدات .

هذا "والإرسالية تعنى جماعة من المنصّرين يقومون بنشر المسيحية فى إقليم معين ، وتضم الإرسالية عادة عِدّة مراكز يختص كل منها بالعمل فى مدينة معينة يطلق عليها " المركز التبشيرى " أو "مركز التبشير" ، " كما توجد مراكز فرعية على مستوى القرى " (١) .

وهذه الإرساليات تروج باستمرار للفكر المعادى للإسلام ، ولها أجهزة عاتية جبارة ، ووسائل خطيرة ، ومنافذ عديدة تتصل من خلالها بالمسلمين ، وتبث فيهم ما لديها من سموم فكرية ، أضرّ بهم وأفتك من السموم البيضاء والسوداء .

فمجالات التعليم والخدمات الطبية ، والاجتماعية والثقافية المختلفة وإنشاء المدارس والمعاهد وأحيانا الجامعات ، وغيرها من الوسائل والأنشطة التى تتبناها الإرساليات التبشيرية ؛ كلها طرق مناسبة لبث المفتريات والأباطيل المشوّهه للإسلام والمعادية له .

وهذا مثال من الكتب التى تدرسها إحدى الإرساليات الأجنبية فى

---

(١) الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب د / كرم شلبى ص ٤٨ هامش . مكتبة التراث الإسلامى . القاهرة ط الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١م نقلا عن التبشير النصرانى فى جنوب السودان - وادي النيل - إبراهيم عكاشة ص ٢٤.

بيروت فى مدارسها التى يؤمها –للأسف – أبناء المسلمين وغيرهم ، ننقله مما كتبه صاحبا كتاب " التبشير والاستعمار فى البلاد العربية "، فقد تكلما عن كتاب كان يدرس فى الصف الرابع من المدرسة البطريركية فى بيروت ، وكذلك فى مدارس أخرى كثيرة فى لبنان ، وفى غير لبنان (و هو مطبوع فى لبنان) والاسم الكامل لهذا الكتاب هو هذا :

تاريخ محاضرات ج . إيزاك . حررها أ .ألبا ، للشرق الادنى لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى) طبعة مطابع الآداب الفرنسية فى بيروت .

جاء فى هذا الكتاب :

ص ٣١ – واتفق لمحمد فى أثناء رحلاته أن يعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى ؛ ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا .

ص٣٢ – والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم ، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة .

ص٣٦ – وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل .

ص١٢٦ – ودخلت فلسطين فى سلطان الكفرة منذ القرن السابع

للميلاد ([١]) .

هذا واحد من كتب كثيرة مستفزة تنطوى على كثير من اللغو والافتراء ، فضلا عن كتب أخرى ليست سافرة مكشوفة ، وإنما تصاغ بأساليب ملتوية ماكرة .

إن هذه الإرساليات ركيزة من ركائز الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ورافد خطير من روافده ولها نفوذ وسيطرة كبيران فى بعض البلاد خاصة الفقيرة منها ، وهى فى بعض البلاد أكثر نفيرا ولا صوت يعلو فوق صوتها ، ولا يوجد فكر آخر يقدر على أن يزاحم فكرها المدمر ، لما لها من صولة وجولة ، ومن بطش أحيانا ، وتدعمها كبرى الدول ، وتشد من أزرها ، وهى عامل من عوامل عدم الاستقرار فى البلاد التى تحل فيها ، ولن تسير الأمور على نحو مستقيم إلا باستئصال شأفتها وقطع دابرها من العالم الإسلامى.

---

(١) التبشير والاستعمار فى البلاد العربية . د/ مصطفى خالدى ، د/ عمر فروخ ص ٧٤ .

الفصل الرابع

ملامح منهج البحث الاستشراقى في الدراسات الإسلامية

تمهيد : المستشرقون والمنهج العلمى :

يزعم المستشرقون أنهم أصحاب منهج علمى نزيه فى كل ما يقومون به من دراسات وبحوث ، ويتشدق بهذا الزعم تلامذتهم وأشياعهم فى بلادنا ، ويحاولون جاهدين تكريس هذا المفهوم وتلمسّ شتى الأدلة والقرائن لإثباته ، وإذا قام أحد الباحثين وقال بعكس ذلك ، وأثبت أن المستشرقين كثيراً ما يجافون المنهج العلمىّ وقواعد البحث والدراسة ، وخاصة فيما يتصل بدراسة الإسلام ؛ كان حظه من أولئك الأشياع أن يتهم بالتعصب والتحامل على المستشرقين أصحاب الفضل – فى نظرهم – على تراثنا .

ونحب أن يعلم الجميع – خاصة المستشرقين ومن يدور فى فلكهم – **أنه** ليس بيننا وبين المستشرقين خصومة شخصية أو عداء ذاتىّ ، بل على العكس ، فنحن – الباحثين المسلمين – من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع الخصوم ، والاعتراف بالحق لذويه ، فيقول الله تعالى : " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله " (١) ، ومن هذا المنطلق إن أحسن المستشرقون

---

(١) سورة المائدة : ٨ . وقال الإمام ابن كثير رحمه الله : أى لا يحملنكم بغض قوم =

فلدينا من الشجاعة والصراحة ما يدفعنا لأن نقول لهم أحسنتم ، وفى نفس الوقت لا يمنعنا الخوف من الاتهام بالتعصب والتحامل من أن نقول لهم حال إساءتهم ، أسأتم وعند خطأهم أخطأتم .

ونحن لا نمارى فى معرفة المستشرقين بالمنهج العلمىّ وقدرتهم على استخدامه وتطبيقه فى دراساتهم وبحوثهم المتشعبة الواسعة ، ولا ننكر أن بعضهم يمارسه ، أو أنهم يمارسونه فى بعض مجالات دراساتهم ، وليس فى جميعها ..

أجل .. إن المستشرقين يتحدثون عن المنهج العلمى ، وضرورة التحقق به ، والتمسك بقواعده ، ونعلم أن ليس عندهم مايمنع من تحويل الكلام إلى تطبيق ، لكن إذا كان مجال الدراسة والبحث شيئا غير الإسلام ، أما إذا كان ميدان الدراسة هو الإسلام ، فيصبح التزامهم بالمنهج العلمىّ كلاما نظريا ، وحديثا فارغا من أى مضمون ، وليس له ظلال على أرض الواقع ، ونرى الموازين آخذة فى الميل والاختلال ، إلى حد تكاد معه عقولهم تفقد اتزانها وصوابها.

والحقيقة والواقع يشهدان بأن الأوربيين دائما فى مواقفهم ونظرتهم للأمور يفرقون بين ما هو إسلاميّ وبين ما ليس كذلك ، وقد تعودنا من الغرب أن يكيل بمكيالين ؛ أحدهما مكيال خاص بالإسلام وأهله ، عارٍ من الإنصاف والعدل ، والمتابع لتعامل الغرب فى المحافل الدولية مع قضايا الإسلام والمسلمين ؛ يلحظ هذا الامر بجلاء .

= على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل فى كل أحد صديقا كان أو عدواً (تفسير القرآن العظيم ٢ /٣١ . دار الغد العربى . القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩١م) .

يقول " ليوبولدفايس " النمساوى الذى اعتنق الإسلام ، وتسمى باسم " محمد أسد " متحدثا عن موقف الأوربيين من الإسلام :

لا تجد موقف الأوربي موقف كره فى غير مبالاه فحسب ، كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على حدود من التعصب الشديد وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية .

قد لا تتقبل أوربة تعاليم الفلسفة البوذية والهندوكية ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقليّ متزن ، ومبنى على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفى بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزّب غير العلمى فىكتاباتهم عن الإسلام .

ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحت فى البحث العلمى ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته .

وليس ذلك قاصرا على بلد دون آخر ، إنك تجده فى انجلتره وألمانيا ، وفى الروسية وفرنسة ، وفى إيطاليا وهولنده ، وبكلمة واحدة فى كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام ، ويظهر أنهم ينتشون بشئ من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة – حقيقية أو خيالية – ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد (١) .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . محمد أسد . نقله إلى العربية د/ عمر فروخ =

وإلى مثل هذا أيضاً يشير العقاد فى معرض حديثه عن نهج الأكثرين من المستشرقين فى الكتابة عن الموضوعات الإسلامية ، فيقول :

" وعندهم – دائما – أن مسائل الإسلام موسومة بالغرابة والمخالفة لما عداها من المسائل العالمية ، فهم يتطلبون الشذوذ الغريب ابتداءً من النظرة الأولى ، ولا يحسبون أن التحليل العلمىّ يتسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل ، وقد تسربت طريقتهم هذه فى التأليف إلى عقول قرائهم وتلاميذهم من الشرقيين المسلمين وغير المسلمين ، فكلهم يبتدئ البحث بالتفرقة بين ما يبحثة من شئون الإسلام ، وما يبحثه من أمثالها فى التاريخ القديم أو التاريخ الحديث من شئون الأمم الشرقية والغربية الأخرى ، وكلهم يخص الإسلام بمنظار (خاص) من أول نظرة ، ولا يحمل ذلك المنظار نفسه حين يتحول بالنظر إلى سواه " (١) .

والواقع أن منهج المستشرقين فى دراسة الإسلام وما يتصل به ، قد اتسم – للأسف – بكثير من النقائص ، بحيث أنه قد خلا من النزاهة والتجرد ، وغدا عاريا من الروح العلمية المنصفة فى أكثر بحوثه وأغلب إنتاجه الفكرى ، ولا عجب فإن العقل الاستشراقى ابن بيئته الغربية ، وجزء من الكيان الأوربى الكاره للإسلام والمتحيز ضده على كل صعيد ، وفى كل آن .

= ص٤٩ –٥١ باختصار . مكتبة المنار بالكويت ط السابعة ١٩٧٤م .

(١) ما يقال عن الإسلام ، للعقاد.مجموعة الأعمال الكاملة جـ ٦ ص ٤٧٤–٤٧٥ . دار الكتاب اللبنانى . بيروت . ط الأولى ١٩٧٤ .

وسوف نحاول رسم صورة توضيحية لملامح هذا المنهج وحقيقته وخلفيّاته ، من واقع ما أنتجته قريحة المستشرقين ، وسطروه في بحوثهم حول الإسلام ، وسنرى أنها ملامح كريهة متجهِّمة ، لمنهج بغيض لا يشرِّف العلم ، وذلك على النحو التالى :

أولاً : اعتقاد أمور ، وتكوين آراء وافتراضات مقدَّما ، ثم التماس التأييد لها :

وإن من مقتضيات البحث العلمي النزيه أن يبدأ المرء في بحثه لأمر ما وهو خالي الذهن من أحكام مسبقة ، وأن يُكوِّن آراءه من خلال ما تجمّع لديه من أدلة ومعطيات ، فتستخلَص النتائج من المقدمات .

أما المستشرقون فقد خالفوا هذا المنهج واختاروا لأنفسهم منهجاً مغايراً في الدراسات الإسلامية ، حيث يقومون بالاعتقاد قبل الدليل ، والاستنتاج قبل المقدمات ، فيكون في رأس أحدهم فكرة مسبقة ، ثم يحاول جاهداً أن يلتمس لها الأدلة ، ولو أدى ذلك إلى تشويه الحقائق ، أوبتر النصوص ، أو استخدام أية وسيلة غير شريفة.

يقول الدكتور حسين الهراوى : إنى لأعلم أن المستشرقين ينقصهم فى مباحثهم عن الإسلام الروح العلمية ، وإن لهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم ، وهى أنهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون الدليل عليه ، فإذا وجدوا فى القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه ، والتمسوا الآيات التى تناسب المعنى المراد ، ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال ، أو

تحريف معناها حسب الرغبة " (١) .

وعلى الجملة فإنه طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها ابداً أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه تعصبها لرأيها (٢) .

وقد برز هذا النهج الفاسد - على سبيل المثال - فى موقف الجموع الغفيرة من المستشرقين من قضية ربانية الإسلام ، ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يصرّون على الاعتقاد بأن الإسلام ليس ديناً أوحاه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وأنه صلى الله عليه وسلم - فى زعمهم - لم يوح إليه بشئ ، ثم طفقوا يحاولون إثبات هذا الاعتقاد أو بالأحرى هذا الوهم ، فقاموا بافتراض عدة افتراضات سلفا ، ثم أخذوا يلتمسون لها الإثباتات والأدلة ، فافترضوا أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قد لفق الدين الذى جاء به وهو الإسلام من اليهودية والنصرانية ، وأخذوا يبحثون عن أدلة تثبت صلة الإسلام باليهودية والنصرانية - فى زعمهم - حتى أعياهم البحث ، ومن حظهم العثر أن بحوثهم العريضة لتدعيم مفترضهم السابق قد باءت بالفشل ، ولم تثبت أمام النقد العلمي ، وكللت الخيبة مساعيهم الآثمة الخبيثة ، وأبطل

---

(١) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج . أنور الجندى ٨٤٨/٤ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق . ص ٥٠ .

بعضهم حجة بعض ، بل لم يسلم الأمر فى بعض الأحيان من نقض أحدهم لما ذهب هو إليه من دلائل ، حتى لكأنهم يتيهون فى بيداء من الخرافات أو يغرقون فى بحر متلاطم من التخبط والتناقص ، ونعوذ بالله من الخذلان .

ومن الأمثلة على هذا المسلك ما فعله المستشرق اليهودى الألمانى "ولهلم رودلف" فى كتابه " صلة القرآن باليهودية والمسيحية " حيث إن الأساس الذى قام عليه البحث هو ما اعتقده المؤلف من أن القرآن من عمل محمد (صلى الله عليه وسلم) وتفكيره ، فذهب يبحث عن المصادر التى مدت النبيَّ صلى الله عليه وسلم بهذه المعلومات - فى زعمه - فأتعبه البحث كثيراً ولم ينته به إلا إلى افتراضات لم يجد لها دليلا ([1]) .

وقد أفصح " رودلف " نفسه عن هذا المسلك فقال صراحة :

" إننا لمضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما إلى مكة ، التى يعنينا أمرها كثيراً لأنها موطن محمد ، وإن لم يكن ثَمَّ ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد ، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم ، وإلاّ لاحتفظت لنا السير بأنباء أكثر إسهاباً مما تناهى إلينا " ([2]) .

---

(١) راجع : صور استشرقية . د/ عبد الجليل شلبى ص ٤٩ -٩٥ ، حيث عرض لمزاعم هذا المستشرق وافتراضاته وبيّن تهافتها وبطلانها.

(٢) السابق ص ٥٠.

فهو يعترف أنه لم يكن فى مكة أتباع لليهودية والنصرانية ، لأن ما وصل إلينا من أنباء ليس فيها ما يشير إلى وجود أحد من أتباعهما يمكن أن يتتلمذ عليه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع هذا فهو يستمر فى غيّه ولجاجته ، ويحاول جاهداً تلمّس ما يؤيد معتقده الفاسد ، وظنه السئ فى القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم .. فأين هذا من المنهج العلميّ ؟!! .

وعلى نفس المنهج قد سار المستشرق " ألويس اشبرنجر " وهو مستشرق بريطانى من أصل نمساوى ، حيث كتب مؤلفاً عن حياة محمد ، ولم يكن له من همٍّ سوى البحث عن أى شئ يدعم به ظنه السيّئ فى الرسول صلى الله عليه وسلم والذى كوّنه سلفا ، وأخذ يتخيّل المساوئ والمعايب ، ويلصقها بالنبى صلى الله عليه وسلم ، لدرجة أنه قال – فيما رواه عنه المستشرق الألمانى " جوستاف بفانموللر " : " يجب على كاتب السيرة أن يقوم بالدور الخبيث لممثل الاتهام وأن يستخرج مساوئ أخلاقه [أى النبى صلى الله عليه وسلم] من كلمات مدح محبيه " (١) .

ولا عجب أن نرى المستشرق الألمانى " رودى بارت " يقول عن كتاب " اشبرنجر " (حياة محمد) : " إنه كتاب جاء مخيبا للآمال فى أكثر من ناحية ، وأنه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمى " (٢) .

---

(١) راجع الإسلام فى تصورات الغرب ص ١٦١ -١٦٣.

(٢) السابق ص ١٦١ هامش ، نقلا عن : الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية للمستشرق رودى بارت ص ٢٣.

ونحن نسأل المستشرقين وتلامذتهم : هل من طبيعة المنهج العلمىَ ومقتضياته أن يقوم الباحث بالدور الخبيث لممثل الاتهام وينفذ هذا الدور ببراعة ، ويتعامل مع المعطيات بسوء نية ، وخبث طويّة ؟!

وهل يقوم المستشرقون بتطبيق هذا المنهج عندما يدرسون أو يبحثون فى شئ غير الإسلام ؟

إن هذا المنهج فى البحث - بحق - لمنكر قبيح.

ثانياً : الكتابة عن الإسلام بما يتصوره المستشرقون ، لا من واقع ما يعتقده المسلمون :

وإن من المبادئ الأولية للمنهج العلمى التى يجب اتباعها فى معالجة الأمور التاريخية والعقدية ونحوها ؛ أن يقرر الباحث وجهة نظر من يكتب عنهم كاملة فى وضوح ، لا يكون معه مجال للغموض أو سوء التأويل ، ثم إن بدا له رأى مخالف أو نقدٌ مّا ؛ ذكره على أنه رأيه هو ، وجعله منفصلا عن اعتقاد من يكتب عنهم ويعرض مواقفهم وواقعهم .

ومن هذا المنطلق فإن على المستشرقين حينما يكتبون عن الإسلام ؛ أن يلتزموا الموضوعية والحقيقة فى الحديث عن الدين الإسلامى ، ويصوروا ما يعتقده المسلمون فى دينهم ونبيهم وقرآنهم تصويرا أمينا صادقا ، فيكونون أمناء فى البحث ، ثم ليعتقدوا بعد ذلك ما يشاؤون .

" غير أن هذا المنهج المنطقىّ والطبيعى فى العرض قلما يتبع مع الأسف ، وكثيراً مايحدث العكس ، فيتعرض القارئ نتيجة لذلك - مالم يكن على علم - إلى شئ من الإيحاء برأى معين ، أو يتعرض على الأقل إلى اختلاط فى الأمور يجعله عاجزاً عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين ، وبين رأى الكاتب .

وهكذا نجد كثيراً من المستشرقين الذين يحمّلون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة يهملون ملاحظة أولية للمنهج العلمىّ فى معالجة المسائل التاريخية ، فهم يؤكدون مثلا أن القرآن من إنشاء محمد ، ثم يذهبون مذهبا بعيداً فى تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد ، وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق !! " (١) .

إننا لا نطالب المستشرقين حينما يكتبون عن الإسلام بأن يعتقدوا ما نعتقد نحن المسلمين ، ولكن نطالبهم بالأمانة ، نطالبهم بأن يقولوا لقرائهم إن إيمان المسلمين بصدق نبيّهم ، وربانية رسالته ، وإلاهيّة قرآنه ، هو الأساس الذى يقوم عليه الكيان الإسلامى كله .

ثالثا : الكذب وعدم تحرّي الأمانة فى النقل :

ومن الأخطاء المنهجية والأخلاقية الفادحة التى اتسم بها منهج المستشرقين فى الدراسات الإسلامية ؛ تعمُّدُ الكذب وقلب الحقائق

---

(١) المستشرقون الناطقون بالانجليزية . ملحق بكتاب الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٨٣ - ٤٨٤.

وعكسها ، وترك الأمانة فيما ينقلون من نصوص ، وذلك محاولـة منهم لإثبات آرائهم الفاسدة ، ومعتقداتهم السيئة ، التـى كوّنوها سلفا قبـل البحث والدراسة .

أرأيت إلى إنسان يقف فى وسط جموع النـاس ، والشمسُ فـى ضحاها، والنهار يقارب على الانتصاف ، ومع هذا يخاطب الناس بملء شدقيه قائلا لهم : لا تظنوا أننا فى النهار بل نحن الآن يلفنا ظلام الليل !

ويصرّ على إنكار حقيقة تجمع عليها الخلائق !

إن هذا لا يقوله إلا مريض أو جريئ كذوب .

وإن من المستشرقين من هذا ديدنـه ؛ يأتى إلـى أوثق الأخبـار وأظهر الحقائق وأصح الروايات وأصدق المأثورات . ويقـول بعكسها ويختلق من عصارة حقده ما يخالفها ويناقضها .

وقد تبنى هذا المنهج وتبعه فيه غيره من المستشرقين ؛ المستشرق القسيس "لامانس" ، الذى كتب وتوسع فـى دراسـة الإسلام ، وهـو مـن المستشرقين الرهبان الذين أكل الحقد قلوبهم ، وملأ الغيظ صدورهم ، وبدت العداوة من أفواههم .

"لقد ضاق ذرعا برؤية الإسلام ينتشر شيئا فشيئا، ويبسط ظله يوما فيوما على أفريقيا وآسيا، ويضيق صدر القسيس "لامانس" فإذا به يسخط على القدر نفسه ، ويقول : لماذا جاء القرآن فجأة ليقضـى علـى التـأثير اللطيف ، الذى كان الانجيل قد أخذ يحدثه فى ابن البادية ؟ " (١)

---

(١) أوربا والإسلام ص ١٢٧ .

زعودة إلى منهج الكذب وتعمد قلب الحقائق إلى عكسها ، ومظاهر ذلك فيما كتب هذا المستشرق الحقود ، ونذكر بعض هذه المظاهر من خلال ما سجله الإمام الراحل الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله ، فيما يلى (١) :

١- إن مما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شجاعا.

لقد كان يقود الجيوش فى الغزوات ولم تطر نفسه شعاعا فى أية واحدة منها ، ولا يوم أحد - وقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً - ولم تهله كثرة الجيوش المعادية فى غزوة الخندق ، يوم أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولم ترعه النبال كالمطر يوم حنين ... ومع ذلك فإن " لا منس " يصفه بعدم الشجاعة ، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، فيقول :

" زعموا أن العربى يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح فى الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربى من صفات ومزايا ، ولكنى أتردد كل التردد فى قبول هذا الرأى المبالغ فيه كل المبالغة ... إن شجاعة العرب إنما هى من نوع غير سام " .

٢- ومن المعروف أن الرسول كان يتحنث فى غار حراء ، ينفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفا كل الانصراف عن هذا العالم المادى ، مستغرقا فى التفكير فى الله ، ولكن "لامانس" يؤكد أنه كان يكره الوحدة !

---

(١) السابق ص ١٢٩ -١٣٣ باختصار .

٣- ومن المعروف أن رسول الله صلى اله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان يأتى على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد فى بيت من بيوتهم نار ، وكثيراً ما كان قوته التمر والماء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، ومع ذلك فإن " لامانس " يصفه بأنه أكول . وقد كثّف جسمه بالملذات ، ولا يذكر شيئا منَ صوم الرسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر ، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صوما ، ولكن القسيس " لامانس " يثبت على عناده !

٤- ويقول الله تعالى ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ (١) .

وقد نقلت الأخبار : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه لطول وقوفه فى الصلاة ، ومع ذلك فيقول " لامانس " : كان محمد نؤوما ، وهو لا شك يجهل أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط ، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكذب خبر القرآن من أن الرسول كان يقضى جزءاً كبيراً من الليل فى النوم لما استمروا على متابعته وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم " أ هـ .

" ومع ذلك فلامانس جرئ جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة فى أنه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة على خبر واحد يؤيد به زعمه

---

(١) سورة المزمل : ٢٠ .

وهواه ؛ استغنى عن الخبر ، وثبت على مزاعمه الباطلة التى يسوقها إلى القراء برشاقة بالغة ، وأحياناً يقول :

" إن هذا الأمر عني رجال الحديث والأخبار بكتمانه " (١) .

وهكذا نرى تعمد الكذب ونسج المفتريات التى ليس لها ظل من الحقيقة ، وترك الحقائق التى تلوح فى الآفاق كالشمس فى رابعة النهار !

فهل هذا هو المنهج العلمى الحديث الذى يطبقه المستشرقون فى دراستهم للإسلام وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

لبئس ما يصنعون .

ومن الأمثلة على تعمد التحريف وترك الأمانة فى النقل ماذكره الدكتور مصطفى السباعى من أن المستشرق اليهودى " جولد زيهر " فى محاولته إثبات زعمه بأن الحكومة الأموية قد وضعت الأحاديث ودعت إلى وضعها ، قد تعمد التحريف فيما نقله من نصوص :

ذكر جولد زيهر أن معاوية قال للمغيرة بن شعبة : " لا تهمل فى أن تسبَّ علياً ، وأن تطلب الرحمة لعثمان ، وأن تسبَّ أصحاب علىَّ وتضطهد من أحاديثهم ، وعلى الضد من هذا أن تمدح عثمان وأهله ، وأن تقربهم وتسمع إليهم " ثم يقول جولد زيهر : " وعلى هذا الأساس قامت أحاديث الأمويين ضد علىّ " .

---

(١) أوربا والإسلام ص ١٣٦ .

قال الدكتور السباعى :

أما قول معاوية " وأن تسب أصحاب عليّ ، وتضطهد من أحاديثهم " واستدلال المستشرق على أن بعض الحديث قد اضطهد ، فهنا هنا مجال العبرة لمن يحسن الظن بعلم هؤلاء المستشرقين وأمانتهم ، إن أصل العبارة كما رواها الطبرى : " لا تحجم عن شتم عليّ وذريته ، والترحّم على عثمان والاستغفار له ، والعيب على أصحاب عليّ والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وإطراء شيعة عثمان ، والإدناء إليهم ، والاستماع منهم " .

فانظر كيف حرّف هذا المستشرق لفظ " والإقصاء لهم " بلفظ " وتضطهد من أحاديثهم " فإن كلمة أحاديثهم لا وجود لها فى أصل النص أفرأيت كيف تكون أمانة العلماء ؟ (١) .

ومثال آخر ، ننقله عن الدكتور السباعى أيضا ، وهو كذلك حول تحريف جولد زيهر للنصوص ، فقد ذكر كلام المستشرق ، وعقّب عليه ببيان زيفه فقال :

ثم زعم جولد تسيهر أن الزهريّ اعترف اعترافا خطيراً فى قوله الذى رواه عنه معمر : " إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث " وأن ذلك يُفْهِم استعداد الزهريّ لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية .

أما هذا النص الذى نقله ففيه تحريف متعمَّد يقلب المعنى رأسا

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى . د مصطفى السباعى ص٢٠٤ – ٢٠٥ .

على عقب ، وأصله كما فى ابن عساكر وابن سعد : أن الزهريّ كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس - ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ولا يتكلوا على الكتب - فلما طلب منه هشام وأصرَّ عليه أن يُملِي على ولده ليمتحن حفظه ، وأملى عليه أربعمائة حديث ، خرج من عند هشام ، وقال بأعلى صوته : " يا أيها الناس أنا كنا منعناكم أمراً قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة "الأحاديث" فتعالوا حتى أحدثكم بها ، فحدثهم بالأربعمائة الحديث " ، هذا هو النص التاريخى لقول الزهرى ، وقد رواه الخطيب بلفظ آخر ، وهو : " كنا نكره كتاب العلم - أى كتابته - حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء . فرأينا أن لا نمنعه أحدا من المسلمين " .

فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهرى كما رواه جولد تسيهر : أكرهونا على كتابة أحاديث " وبين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون : " أكرهونا على كتابة الأحاديث " أو كما رواه الخطيب : " أكرهونا على كتاب العلم " ثم انظر إلى هذه الامانة العلمية ، حذف " ألـ " من " الأحاديث " فقلبت الفضيلة رذيلة .. حيث كان النص الأصليَ يدل على أمانة الزهرى وإخلاصه فى نشر العلم ، فلم يرْضَ أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس إلا أن يبذله للناس جميعا ، فإذا أمانة هذا المستشرق تجعله ينسب للزهرى أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها فأين هذا من ذاك ؟ (١) .

ومن صور الكذب وعدم تحرى الأمانة العلمية فى البحث ، جمع

---

(١) السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢ باختصار قليل .

الشبهات المتفرقة وتلفيقها ، ومحاولة التأليف بينها ، وتقديمها على أنها صورة متكاملة متناسقة .

" ومثال ذلك ما قام به المستشرق الألمانى "ولهلم هور نباخ" (الأستاذ فى جامعة بون بألمانيا) من جمع قطع ونتف وشذرات من كتاب (الإصابة) للحافظ ابن حجر ، ثم ينشرها على أنها كتاب (الردة) لابن حجر ، الذى ألفه أبو زيد بن الفرات المتوفى عام ٢٣٧ هـ وهو فارسى الأصل ، وقد ضاع هذا الكتاب ، فأشار ابن حجر إليه فى بعض المواضع ، فما كان من المستشرق ولهلم إلا أن جمع هذه القطع على أنها تراجم لأشخاص ارتدوا عن الإسلام ، ولا يقوم بمثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى ، لأنه يخالف البحث العلمىَ السليم " ([١]) .

رابعاً : انتقاء المثالب وتضخيمها ، وإهمال الحقائق المنصفة :

وكما سبق ، فإن الغالب على جمهور المستشرقين أنهم يدرسون الإسلام بسوء نيه وخبث طوية ، ولذلك فإنهم يكرسون جهودهم للبحث عن مثالب يتخيلونها ، أوزلاّت وسقطات حدثت فى التاريخ الإسلامى ، فيعرضونها ويضخمونها ، بينما يهملون الحديث تماما عن الإيجابيات ويتحاشون ذكر الحقائق المنصفه ، أو يذكرونيا ويحقرون من شأنها ، ويحطون من قدرها ، فتبدو الصورة عن الإسلام فى نظر القارئ سوداء شائهة .

---

(١) أساليب الغزو الفكرى ص٢٥ .

وقد كتب الدكتور حسين مؤنس دراسة تتضمن عرضا وتحليلا ومناقشة للفكر الاستشراقى من واقع ما كتبه المستشرقون ، واختار كتاباً للمستشرق " جاستون فييت " بعنوان " مجد الإسلام " .

وقد تبين بما لا يدع مجالا للشك حقيقة بحوث أولئك المستشرقين وأنها مجافية للمنهج العلميّ ، وتجلّى من خلالها هذا المنهج الخاطئ الذى نحن بصدده ، وهو انتقاء المعايب فى ظنه ، وترك المعالم المشرقة والحقائق الناصعة .

فلقد اعتمد " جاستون فييت " على تشويه الحقائق وتزييفها ، وانتقى مارأى أنه نقائص ووضعها تحت المجهر ، بينما أغفل جاهلا أو متجاهلا الصفحات المشرقة من تاريخ الإسلام (١) .

" وفى عرضه المجهد لتاريخنا فاتته أهم الحقائق التى سيرَت هذا التاريخ : استحوذت على اهتمامه حوادث السياسة والوقائع والحروب ، فمضى يتابع قيام الدول وسقوطها والحروب ووقائعها .

وفاته أن للعرب والمسلمين تاريخاً آخر غير هذه السلسلة الطويلة من وقائع السياسة والميادين .. فاته تاريخ المجتمع الإسلامى : كيف تكون وكيف قام ، وتاريخ اللغة العربية كيف سارت من الخليج إلى المحيط ، وتاريخ الحضارة الإسلامية وهو فى الواقع تاريخ أممنا جميعاً ..

---

(١) راجع هذه الدراسة القيمة للدكتور حسين مؤنس حول نقد كتاب " مجد الإسلام " لجاستون فييت ، ملحقة بكتاب الفكر الإسلامى الحديث ص ٤٥٧ - ٤٧١ .

فليس بين فصول كتابه فصل واحد عن انتشار الاسلام وكيف كان ؟! وليس هناك سطر واحد عن لغة العرب وكيف أصبحت لغة الملايين ؟!

ولا ذكر فى كتابه لنواحى حضارتنا ، كل ما هناك هو أنه يقف فى نهاية الكتاب فيقول : إن حضارتنا ركدت بعد القرن الخامس عشر ، لأنها لم تقم على أساس حضارة اليونان !

وهذا أعجب ما سمعنا من مؤرخ !!! " (١) .

وقد سار على نفس المنهج وفى ذات الاتجاه كذلك المستشرق الهولندى الشهير " راينهارت دوزى " فى كتابه عن تاريخ الإسلام والذى اهتم فيه - كما ذكر المستشرق الألمانى بفانموللر - بتتبع الإسلام عبر عصور تاريخه كلها حتى الآن (٢) .

فقد تحدث " دوزى " فى مجلدات مطولة عن الجوانب التاريخية للإسلام ، بينما عالج الحديث عن مبادئ الإسلام وتعاليمه بطريقة مختصرة للغاية ، فقد تم الحديث عن العقيدة فى صورة خطوط عريضة فى صفحتين فقط ، وأما التعاليم الخلقية فقد جاء الحديث عنها بصفة عرضية فقط ، وهو يعلم أن العقيدة الإسلامية هى أسمى وأوضح عقيدة فى الوجود ، وأن المنظومة الأخلاقية التى جاء بها الإسلام لهي أرقى دستور أخلاقيّ ، وأقوم منهج سلوكيّ عرفته البشرية ، ولكن يبدو أن

---

(١) السابق ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٢) راجع : الإسلام فى تصورات الغرب ص ٢٨ وما بعدها .

القصد هو إخفاء الصورة المشرقة لتعاليم الإسلام والتركيز فى عرضه على جوانب معينة تظهر له ولأمثاله نقاط ضعف ، أو جوانب سلبية ، فهو لا يسجل بقلمه إلا ماتريده نفسه الحاقدة مما يشوه به مبادئ الإسلام وحقائقه الناصعة (١) .

إن هؤلاء المستشرقين ذوو قلوب مريضة تطفح بالتعصب الممقوت ، والتحامل الظالم ضد الإسلام ، فلا يرى أصحابها بعيونهم الأشياء على حقيقتها ، ومن ثم تهيمن على منهج البحث لديهم روح خبيثة شريرة تكره الحق ، وتعمل جاهدة على إطفاء نوره ، وحجب سموه وإشراقة ، ماستطاعت إلى ذلك سبيلا .

وإنهم لايكتفون بتقمم المثالث - فى ظنهم - وحجب الحقائق عن القارئ فى كتاباتهم ، بل يرهبون من تسوّل له نفسه أن يعرض الحقيقة بإشراقها ، أو يصور المنهج الإسلاميّ تصويراً أمينا صادقا .

فإن كان عالما من بنى جلدتهم رموه بالتعاطف مع المسلمين تارة ، وبمخالفة المنهج العلمىّ أخرى ، وبالعداء للكنيسة ثالثة ، بالإضافة إلى الحيلوله بين بحوثه وبين الرواج والانتشار ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل ، وذكرنا بعض الشواهد والأدلة على وجوده .

وإن كان طالبا ساقه حظه العثر إلى أن يتلقى العلم فى معاهدهم ، ويمنح الشهادة بواسطهم ويجاز بأيديهم ؛ فلا يمكن أن يسمح له بإنصاف الإسلام وذكر الحق مجرداً من كل هوى ، ودحض أباطيلهم

---

(١) السابق ص ٣١-٣٢ وحواشى المترجم ص ٣٢ بتصرف .

ومفترياتهم ، وإن خرج عن مألوفهم وخالف منهجهم المتحامل ، وأراد أن يحق الحق ويبطل الباطل فى قضية تتعلق بالإسلام ، تعرض للرسوب والحرمان من الشهادة التى تقدم لنيلها غير مأسوف عليه (١) .

وهكذا يبحث المستشرقون ، ويوجّهون الدراسات ، فإن وجدوا خيراً دفنوه ، وإن توهموا شرًّا أذاعوه ، وصدق فيهم قول الشاعر :

إن يأْذَنُوا ريبةً طاروا بها فرحا   وماهُمُ أَذِنُوا من صالح دفنوا (٢)

خامسا : عدم دراسة الإسلام من مصادره المعتمدة :

ثم إن المنهج العلميّ يفرض على أىّ باحث أو دارس للإسلام ، أن يرجع إلى مصادره المعتمدة ، والتى تتمثل بشكل أساسى فى القرآن والسنة ، فمنهما تستقى عقائد الإسلام وتشريعاته وأخلاقه ، وغير ذلك مما يتعلق بالدين الإسلامى .

لكن هناك جمهوراً عريضا من المستشرقين يتبنى اتجاها غير علميّ فيا يتصل بدراسة الإسلام ، فيذهب ليستقى معلوماته بعيداً عن المصادر المعتمدة للإسلام ، ولهذا المنهج صور مختلفة أشير إليها فيما يلى :

---

(١) راجع: السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٢ -١٣ ، ١٧ - ١٨. والاستشراق والمستشرقون ص ٥١ - ٥٢ ، ٥٨-٥٩ . ففيهما أمثلة واقعية على هذا الأمر .

(٢) البيت أورده القرطبى فى تفسيره جـ ١٩ ص ١٧٧ ط دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ، ونسبه إلى قعنب بن أم صاحب . ومعنى يأْذَنُوا : أى يستمعوا .

أ- فمن المستشرقين من يدرس الإسلام من واقع المسلمين ، أومن واقع فرقة معينة منهم ، كالمتصوفة أو الشيعة أو أى جماعة أخرى .

وهذا من أكبر الخطأ ، فإن سلوك المسلمين - أياً كانوا - ليس حجة أو حاكما على الإسلام ، بل الإسلام - متمثلاً فى القرآن والسنة - هو الحجة والحكم على الجميع ، وهو المرجع وليس الأفراد .

ومن الأمثلة على هذا الاتجاه المستشرق والمبشر الأمريكى " ماكدونالد " فى كتاب له ، تناول فيه جوانب مختلفة عن الإسلام ، وهذا الكتاب كما يقول عنه المستشرق " بفانموللر " يقوم على محاضرات ألقاها " ماكدونالد " فى المعهد اللاهوتى فى هارتفورد ، وغاية هذه المحاضرات أن تكون بمثابة مدخل لدراسة الإسلام الحاضر بالنسبة لهؤلاء الذين سيكونون مبشرين فى المستقبل .

ثم يقول بفانموللر : والنتيجة الرئيسية لأبحاثه : هى أنه من الناحية العلمية يعد كل الناس الذين يفكرون تفكيراً دينياً متصوفة ، وأنه يجب البحث عن الدين الإسلامى الحقيقي بين الدراويش (١) .

وهكذا يجافى فى هؤلاء المستشرقون مسلمات وقواعد منهج البحث العلمى ، حين يتجهون للبحث عن الدين الإسلامى الحقيقى بين بعض طوائف المسلمين ، ويتركون البحث عن الدين الحقيقى فى مصدريه الرئيسين وهما القرآن والسنة .

ب - وكثير من المستشرقين يرجع فى دراسته للإسلام إلى ما

---

(١) الإسلام فى تصورات الغرب ص ٤٥ .

كتبه غيرهم من المستشرقين المعادين له ، فهو ينقل عن ما كتبه أمثال: جولد زيهر ، وشاخت وموير وغيرهم ، وهكذا يتناقل هؤلاء خلفا عن سلف ويروجون الشبهات والأباطيل ، فتصبح بمرور الوقت واالشهرة حقائق مسلمة ، والحال أنها فى الأساس لا صلة لها بمصدر علمى معتمد ، فضلا عن أنها صادرة عن كُتَّاب تطفح قلوبهم بالحقد والكراهية للإسلام ، وتعجّ كتاباتهم بالافتراء والتحامل ، والتحريف المقصود للحقائق .

وهذاشاهد عيان قد زار أكثر جامعات أوربا عام ١٩٥٦ م ، واختلط بالمستشرقين فيها ، وتحدث إليهم وناقشهم ، وهو الدكتور مصطفى السباعى – رحمه الله – ، ونأخذ مما كتبه عن هذه الرحلة شهادة على مانحن بصدده .

قال رحمه الله : وفى جامعة أكسفورد وجدنا رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية فيها يهوديا يتكلم العربية ببطء وصعوبة ، وكان أيضا يعمل فى دائرة الإستخبارات البريطانية فى ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية ، وهناك تعلم العربية العامية ، وتلك هي مؤهلاته التى بوأته هذا القسم ، ومن العجب أنى رأيت في منهاج دراسته التى يلقيها على طلاب الاستشراق : تفسير آيات من القرآن الكريم من " الكشاف " للزمخشرى (إي والله وهو لا يحسن فهم عبارة بسيطة فى جريدة عادية) ودراسة أحاديث من البخارى ومسلم ، وأبواب من الفقه فى أمهات كتب الحنفية والحنابلة ، وسألته عن مراجع هذه الدراسات ، فأخبرنى أنها من كتب المستشرقين أمثال : جولد تسيهر ، ومرجليوث

وشاخت ، وحسبك بهؤلاء عنوانا على الدراسات المدخولة المدسوسة الموجهة ضد الإسلام والمسلمين (١) .

جـ- بل ومن أعجب العجب أن من المستشرقين من لم يكن له مرجع فى الكتابة عن الإسلام إلا الأساطير والحكايات الشائعة ، وتاريخ الحركة الاستشراقية مكتظ بعشرات بل مئات الخرافات والأساطير التى نسجت حول الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، وخاصة فى العصر الوسيط ، وهى أساطير لا يمكن أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا أثر من وجود إلا فى عقول مخترعيها ، لا سيما فى ذلك العصر .

وقد عرض المستشرق بفانموللر فى كتابه موجز فى أدب علوم الإسلام لطائفة من تلك الأساطير والخرافات ، التى سادت فى القرون الوسطى ، وظلت بصماتها وآثارها إلى الآن تسرى فى تيار الاستشراق .

ومن بين تلك التصورات الأسطورية التى كانت منتشرة بصفة خاصة - كما ذكر بفانموللر - القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمداً لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم ، بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل الألوهية ، وبالإضافة إلى ذلك وصف دين محمد - على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية - بأنه دين الشرك ، وتعدد الألوهية ، وقد اتهم المحمديون أيضاً - دون سند تاريخى - بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة .

ثم يقرر بفانموللر أن البيزنطيين هم أول من أذاع فى الغرب معظم الأساطير عن محمد والإسلام ، وعنهم أخذ الغرب تلك

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٤ ، الاستشراق والمستشرقون ص ٥٣ .

الأساطير (١) .

ومن الأساطير الجنونية والخرافات المضحكة ، التى ذكرها بفانمولر أيضاً : تلك التى تتعلق بوفاة النبيَّ صلى الله عليه وسلم "فالخنازير قد التهمته وهو فى حالة سكر ! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين " (٢) قاتل الله أولئك المفترين الأفاكين .

وهناك " الخرافة التى انتشرت انتشاراً واسعا فى العصر الوسيط ، والتى تقول بأن محمدا كان فى الأصل كاردينالا رومانيا يسعى للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل فى الحصول عليه أسس طائفة المحمدية ، وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية (٣) .

وقد سبق إيرادما اعترف به (جيبير النوجنتى) من أنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط إلى آراء العامة ، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتميز بين الخطأ والصواب ، وأنه قال مبرراً هجومه وافتراءه على الإسلام ونبيه :

" لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء

---

(١) الإسلام فى تصورات الغرب ص ١١٧-١١٨ وهو عبارة عن فصول مترجمة من كتاب " موجز فى أدب علوم الإسلام " للمستشرق بفانمولر .

(٢) السابق ص ١٢٢ .

(٣) أيضاً ص ١٢٥-١٢٦ .

يمكن أن يتصوره المرء " (١) .

وهكذ نرى أولئك المستشرقين يجافون مسلمات المنهج العلميّ حين يستمدون معلوماتهم عن الإسلام من غير مصادره المعتمدة تارة ، ومن الأساطير والخرافات التى لا أصل لها تارة أخرى .

سادساً : دراسة الإسلام بعقلية أوربية مسيحية :

ثم إن جمهور المستشرقين يدرسون الإسلام بحسب العقلية الأوربية المسيحية ومقاييسها ، دون أخذ فى الاعتبار طبيعة الشرق الإسلامى وعاداته وظروفه ، بل ومتجاهلين خصائص االدعوة الإسلامية وطبيعة الرسالة التى بعث الله بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقد تجلّى هذا المنهج الاستشراقى فى بحوث المستشرقين عن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، حتى لكأن المرء يحس - لولا الأسماء العربية - أن الأشخاص الذين يتكلم عنهم المستشرقون فى بحوثهم ، لكأنهم أشخاص أوربيون ، ولا يستثنى من هذا شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول المستشرق المهتدى إيتين دينيه (ناصر الدين) ، فى معرض حديثه عن كتابة المستشرقين لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم من خلال هذا المنهج :

---

(١) انظر ص ٢٤ .

" فإنا نلمس من خلال كتاباتهم :

محمدا يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان الكاتب ألمانيا .

ومحمداً يتحدث بلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا .

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا فى هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجد لها من أثر !

إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية أبعد ما تكون عن الحقيقة !

إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها أمثال " ولتر سكوت " و " اسكندرديماس " ، وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة .

أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقة لأشخاص السيرة فصوروهم حسب منطقهم الغربى وخيالهم العصريّ " (١) .

ولنتأمل فى دراسة المستشرق القسيس " لا مانس " للتاريخ الإسلامى بهذا المنهج المفسد :

" إنه يحدثنا عن مكة والمدينة فى عهد الرسول ، فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن حينما يتحدث فى جزيرة

---

(١) أوربا والإسلام ص ١١٨.

العرب عن الحملة الصحافية ، عن الماليين فى بنك مكة ، مليار النقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، إبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة ، ديوان ذى الجلال ، وزارة الله ، إلى آخر هذه التعبيرات التى تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة " (١) .

ومن مفاهيم العقلية الأوربية المسيحية وتصوراتها أن الدين لاصلة له بالسياسة وسائر شئون الناس ومعاشهم ، وأنه خاص بالطبيعة الإلهية ، وقاصر على العلاقة بين الفرد وربه ، وهذا المفهوم من منطلق اعتقادهم أن المسيح عليه السلام لم يتدخل فى السياسة ، وقال - بحسب ما ترويه أناجيلهم - : " اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " (٢) وأيضا : " مملكتى ليست من هذا العالم " (٣) .

ويأتى المستشرقون - وهم جزء من تلك البيئة الأوربية ومطبوعون بعقليتها - فيحاولون فى دراستهم للإسلام ، وبحثهم فى قضاياه أن يطبقوا هذه المفاهيم وأمثالها عليه ، فيصبح الإسلام فى نظرهم فى موضع الإدانه لمخالفته مقاييس العقلية المسيحية ، فيما يتعلق بطبيعة الدين عندهم وتصورهم له ، ويكون النبى صلى الله عليه وسلم - فى نظرهم - معابا (حاشاه صلى الله عليه وسلم) إذا أتى بشريعة تجعل السياسة جزءاً من الدين .

ومن الأمثلة على هذا المنهج ماصنعه المستشرق الألمانى

---

(١) السابق ص ١٣٦ .

(٢) متى ٢٢ / ٢١ ، ومرقس ١٢ / ١٧ ولوقا ٢٠ / ٢٥ .

(٣) يوحنا ١٨ / ٣٦ .

" أوجست موللر " فى دراسته عن الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم .

" فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك إلا جانباً واحداً فقط من الطبيعة الإلهية ، وأنه ينقصه تماما مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيل عميق بطريقة ما لفكرة نظام أخلاقى للحياة ، ثم يصدمنا لدى محمد فى المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين إلى السياسة فى تزايد مستمر ، فقد استعان بالكذب لكى يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك فى البداية دون وعى ثم بنصف وعى ، وفى النهاية بوعى كامل " (١) .

ولقد كان على هذا المستشرق وأمثاله مراعاة أن للإسلام خصوصيته وطبيعته التى لا تعرف الفصل بين الدين والسياسة ، كما أراد له مُشرِّعه ومُنزله سبحانه وتعالى ، وأن الأفهام المسيحية الأوربية التى تأثر بها المستشرقون ، قد جاء الإسلام ليصححها ، فجاء بشريعة تتناول شئون الناس المعاشية والمعادية ، وأنه لن ينصلح حال البشر إلا إذا ساروا فى جميع شئونهم وفق منهج خالقهم ، الذى شرع لهم ما يكون به فلاحهم وعزهم فى الدنيا والآخرة .

تلك ملامح منهج البحث الاستشراقى فى الدراسات الإسلامية ، وحق لنا بعد الذى ذكرنا أن نقول مع أستاذنا الغزالى : " إن الاستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية فى البحث ، وهى أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد ، وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة

---

(١) الإسلام فى تصورات الغرب ص١٦٨ .

الإسلام ، وتشوية محاسنه ، والافتراء عليه " (١) .

وبعد ؛ فهل بعد هذا الواقع ، وتلك الحقائق ؛ يحق لأحد أن يُصرَّ على إضفاء القداسة والنزاهة المطلقة على بحوث المستشرقين ، وعلى أن تمسكهم بالمنهج العلمى القويم مسألة من المسلمات التى لا يتطرق إليها شك ؟!

إن هناك البعض من الباحثين العرب يجعل من التزام المستشرقين بالمنهج العلمى فى بحوثهم واحدة من اليقينيات التى لا تحتمل الجدل ، مثل ما كان من العقيقى فى كتابه " المستشرقون " ، فهو يقرر أن المستشرقين هم أولو منهج علميّ ، عرفوه والتزموا به ، ويقول فى معرض حديثه عن المنهج العلمى : " وقد التزمه علماء الغرب فى كل مناهجهم التزاما شديداً ، وطبقّه المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقا صحيحاً (٢) .

ولا يقر أن هناك منهم من هو صاحب دخيلة متحاملة ، ونية غير سليمة ، إلا من باب الافتراض الجدلى فيقول : " إنا لنفرض جدلا أن جمهرة المتصدين لتراثنا من شرقيين ومستشرقين لا تخلو أنفسهم من هوى ولا تبرأ من اعتلال ... (٣) بينما يؤكد أن المستشرقين فيما عدا نفراً قليلا .. حينما يبحثون " يحارب [أحدهم] هواه أوحتى يسالمه ،

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة . محمد الغزالى ص ٨ . دار الكتب الحديثة . القاهرة ط الثانية ١٣٨٣هـ ١٩٦٣ م .

(٢) المستشرقون ٣/٥٩٨ .

(٣) السابق ٣/٦٠٢ .

فيأخذ نفسه بالمنهج العلمى فتراه يقطع الأمصار ، وينفق الثروات ويفنى العمر بين المخطوطات والآثار والمصنفات ، مطلعا مستنطقا مقارنا فلا يتقدم بقضية إلا وبيده دليلها ، ولا ينهض بدعوى إلا وهو يسوق لها الأسانيد والحجج التى تحسم كل خلاف وتنفى كل ريب (١) .

ويقول : " ونيّفت آثار الكثيرين على المئات من أمثال :

إدوارد براون ، وآثين بالاسيوس وبروكلمان وكراتشكوفسكى ، وسارتون وماسنيون ، دون أن يُسفّ واحد منهم فى واحدة منها ، وقد أكبرها العلماء فى الشرق والغرب " (٢) .

والحقيقة أن فى هذا الكلام نظراً ، بل ولا يخلو من مجازفة ، فإن فيما ذكرنا من ملامح منهج البحث فى الإسلام لدى المستشرقين ما يدحض كلام العقيقى ، ويجعله - فى أحسن تقدير - كما قلنا محل نظر .

فزم منهم من يكذب ومنهم من يفترض سلفا الفروض ، ويتلمس التأييد لها بالباطل ، ومنهم من يزور فى النصوص ويحرف النقول ، ومنهم من يتقمّم المثالب وما يتوهمه معايب ، ثم لايدرسون الإسلام من مصادره المعتمدة ... أفبعد هذا يقال بأن التزامهم بالمنهج العلمى النزيه وتطبيقهم له حقيقة لاريب فيها ؟! .

ويقال بأن أحدهم لا يتقدم بقضية ولا ينهض بدعوى إلا وبيده

---

(١) السابق ٣/٦٠٢ .

(٢) أيضا ٣ / ٦٠١ .

الأدلة والحجج والأسانيد التى تقطع كل خلاف وتنفى كل ريب ؟!

وإن ماسنيون وبروكلمان وأمثالهما فيما خلفوه من آثار لم يُسَف واحد منهم فى واحدة منها ؟

إن كلام العقيقى قد يصدق فى بعض جوانبه على دراسات المستشرقين فى غير الإسلام ، أمَّا أن يوسم به منهج المستشرقين فى الدراسات الإسلامية فهو فى نظرنا مرفوض ، وهناك مئات الأدلة على عدم صحته منها ما ذكرنا ومنها ماسيأتى ذكره فى الفصل التالى .

وتبقى الحقيقة الثابتة ، وهى أن المستشرقين حتى الآن لم يكونوا محايدين متجردين للحق ، بعيدين عن الهوى فى بحوثهم حول الإسلام ، وأنهم إلى الآن لم يستطيعوا إلجام نزوات النفوس بنظرات العقول ، ولم يتمكنوا من أن يربأوا بأنفسهم عن الإسفاف ، والسقوط فى مستنقعات التعصب الممقوت والحقد الأعمى .

ويحتج العقيقى لغلوه فى تقدير المستشرقين والإشادة بأياديهم البيضاء على تراثنا ، وإحاطتهم بهذا التراث ، بما كتبه الأستاذ أمين الخولي بعد تمثيل الجمهوريه العربية المتحدة فى مؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين ، حيث قال الخولي :

" قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم فى القرن السادس عشر الميلادى ، وإنى أشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات،وأظن أن هذه

مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها " [1] .

ونحن نقول : من أين للسيدة كراتشكو فسكى وأضرابها من المستشرقين الأوربيين بتلك المخطوطات النادرة وأمثالها ؟

هل كان مقرتلك المخطوطات ومهدها برلين وباريس ولندن وغيرها من مدن أوربا ؟ أم أنها استقرت فى مكتبات الغرب بفعل الفاعلين ؟! أقصد االسارقين !

ثم ألم يُعمل الاستاذ الخولى ومعه العقيقى شيئا من التفكير فى السبب الذى لأجله لا يعرف كثيرون من أئمة المسلمين شيئا عن تلك المخطوطات ؟

إن السبب ببساطة شديدة هو أن الأوربيين كانو يجوبون بلاد العالم الإسلامى ، لا سيما عند ما كانت تئن تحت قيود المستعمر الغربى ، ويأخذون كل ما تقع عليه أيديهم من نفائس تراثنا بأى طريقة ، مشروعة كانت أم غير مشروعة ، فسطوا على خزائن الكتب والمخطوطات وانتهبوها ورحَلوها إلى بلادهم ، ثم مَنُّوا علينا بعد ذلك بنشرها ، وأنهم حفظوها لنا .

وخير مثال على هذا : المستشرقون الذين كانوا مصاحبين للحملة الفرنسية على مصر ، فقد سرقوا كل نفيس من الكتب

---

(١) المستشرقون ٣ / ٥٩٨ نقلا عن مجلة الشبان المسلمين عدد ديسمبر ١٩٦٠ .

والمخطوطات التى كانت تزخر بها القاهرة ([1]) .

تلك هى الحقيقة فى علاقة الاستشراق بالمنهج العلمي فى دراسته للإسلام وتعامله مع تراثه .

---

(١) راجع : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا للعلامة محمود محمد شاكر ص ١٤٢ - ١٤٦، ففيه تجلية لهذا الأمر وتدليل عليه .

الفصل الخامس

صور من حملات المستشرقين

ومفترياتهم على الإسلام

تمهيد :

ولقد وضع الاستشراق يده في يد كل مناوئ للإسلام ، كارهٍ له ، فتعاون مع الاستعمار ، وآزر الصهيونية ، وكان ولا يزال الخادم المطيع للحركة التبشيرية الصليبية ، فلم يضنَ عليهم برأى أو مشورة ، بل سخر علمه وباحثيه لخدمة أولئك الخصوم وأمثالهم جميعاً ، ولتحقيق أهدافهم العدائية .

وقد مر بنا أدلة دامغة على ما بين الاستشراق وخصوم الإسلام من علاقة وطيدة متناغمة ، وذلك في الفصل الثاني ، والذي بسطنا الحديث فيه عن دوافع الاستشراق .

لقد أسهم الاستشراق ولا يزال في شن حرب فكرية ضروس على الإسلام ، وتأجيج نار حرب الكلمة ضد الإسلام وأهله ، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الاستشراق هو الذي تولى كبر هذه الحرب ، فكان بمثابة المصنع الذي يُصنِّع الشبهات ، وينسج الأباطيل والمفتريات التي بها وعليها تقوم الحرب الفكرية ، تلك الحرب التي تستهدف تقويض بنيان الإسلام ، وصرف الناس عنه ، وإضعاف شأنه في نفوس

أتباعه ، والحيلولة بين المسلمين وبين اتخاذه منهج حياة ، ونظاما يسيرون عليه في جميع أمورهم المعاشيّة والماديّة ، وبالتالي محو شخصية الأمة الإسلامية ، وإذابة كيانها .

ولقد استهدفت حملات الاستشراق الطائشة الغارة على كل ما يمت للإسلام بصلة ، والنيل منه ، فكانت هناك حملات للنيل من ربانية الإسلام ذاته، والنيل من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومحاولة تجريده من صفة النبوة ، والاصطفاء الإلهي له صلى الله عليه وسلم للرسالة ، وكذلك حملات للنيل من القرآن الكريم ، والادعاء ببشريته ، والتشكيك في السنة النبوية ، والنيل من عقيدة الإسلام وشريعته وتاريخه ورجاله ، وغير ذلك ، وقد سوّدوا من أجل ذلك آلافا من الكتب ، وملايين الصحائف ، واقترفوا الزور والبهتان ، واجترحوا القبائح والآثام ، يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا .

وجدير بالذكر أننا لن نعوّل كثيراً على ما نسجه المستشرقون القدامى من مفتريات وأباطيل في العصور الوسطى ، وإنما سنركز على آراء ومفتريات المستشرقين المحدثين ، وهذا لغرض مقصود ، حيث يدعى البعض أن المستشرقين المحدثين الذين جاوؤا في العصر الحديث ؛ قد تحرروا من تلك الروح العدائية التي هيمنت على الاستشراق فيما مضى ، فلزم أن نبين أنّ الحقيقة غير ذلك ، فإن مستشرقي اليوم هم مستشرقو الأمس ، وإن الحملات العدائية التي شنهّا الاستشراق على الإسلام قديما ؛ لاتزال أخواتها تشنّ على الإسلام اليوم ، ونفس الأباطيل التي قذفها الاستشراق صوب الإسلام سلفا هي

بعينها التى يستخدمها الاستشراق حديثا ، وهذا ما يتأكد من خلال إيراد مفتريات المستشرقين المحدثين ، وحملاتهم الظالمة على الإسلام والمسلمين .

وهذه صور منها ، نوردها ثم نكر عليها بما يدحضها ويكسرها ، ويثبت بطلانها – إن شاء الله – وذلك على النحو التالى :

أولاً : النّيْل من شخص الرسول ﷺ :

لقد حرص المستشرقون على أن ينالوا من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويشوهوا صورته عليه الصلاة والسلام ، ويشككوا فى نبوته وجدارته صلى الله عليه وسلم بأن يكون رسول رب العالمين ، حيث توهموا أنهم إن أفلحوا فى هدم تلك الشخصية الربانية العظيمة – كما يحلمون – فسوف ينهار الدين الذى جاء به ، وينهدم الصرح الذى أسّسه ، ويصبح محل نظر ، ما دام أن الرجل الذى كان محور هذا الدين وداعيته ، قد ثبت عدم أهليته وصلاحيته " حاشاه صلى الله عليه وسلم " لأن يكون نبيًّا أو رسولا .

ولهذا فقد راحوا ينسجون كثيراً من الأباطيل والمفتريات حول الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها :

وصم النبيّ ﷺ بالشهوانية :

فقد حاول كثير من المستشرقين أن يصوروا النبي صلى الله عليه بأنه كان أسيراً لشهوته الجنسية ، وليس له هم إلا إرواءها وإشباعها

بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، زعموا .

ففى كتاب له بعنوان " محمد " ، كان يدرس للأسف حتى وقت قريب فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، يقول المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون فى ص٥١ :

" كان من سوء الحظ أن شعر (أى محمد) تجاه خديجة بالعاطفة الطبيعية ، التى أرواها بعد ما تقدمت به السن مع النساء الشابات والمحبوبات فى حريمه " .

ونلاحظ هنا استخدام الكتاب للفظ Procure ، ومن معاينة : يعمل قوّاداً ويجلب النساء للزنا ، مع إمكانية استخدام ألفاظ أخرى ، وكذلك استخدام لفظ الحريم ، لكنها الدناءة تأبى إلا أن تختار ألفاظها .

ولا ينسى المؤلف فى نهاية الفقرة أن يقترح أن حرمان النبى صلى الله عليه وسلم من أمه فى سن مبكرة ، هو مادفعه لحب هذه " المرأة العجوز " فى إشارة واضحة إلى عقدة أوديب (١) .

ويقول رودنسون فى ص٥٥ :

كان محمد مرتبطا بأم أولاده بروابط أقوى من أى وثيقة ، رغم ما عرفناه من ميوله الغرامية بعد ذلك ، ويصعب أن نتخيل أوقاتا مرّبها دون أن يكون مستحقا للعبارة الإنجيلية التى كان سماعها سيفزعه لو سمعها ، وهى أنه " ارتكب الزنا فى قلبه " .

---

(١) الفرنسي السافل فى الجامعة الأمريكية . مقال بجريدة الشعب ، مرجع سابق .

... كان عليه أن يتجنب الإغراءات عدة مرات ، ربما ببساطة خادعة ، ولكن بصرف النظر عن بساطة أو صعوبة الأمر فإننا نعرف كم كلفه التغلب على نداء الغريزة ، الذى ربما يكون قد نجح فى التخلص منه ([1]) .

ويتجرأ المستشرق الفرنسى " دينيه ديدرو " ، وهو من مستشرقى القرن الثامن عشر ، فى كتابه " رسائل إلى صوفى فولاند " ، يتجرأ على القول بأن محمداً كان أفضل صديق للنساء ، وأكبر عدو للعقل ([2]) .

ويصف المستشرق النمساوى " هامر بورجشتال " فى كتابه "صور لحياة الحكام المسلمين العظام" النبي صلى الله عليه وسلم بـ " ضلال شهوانيته " ([3]) .

وأمثال هذا كثير مما يسوء ذكره ، ونعوذ بالله من اعتقاده ، ونبرأ من معتقديه ، وقد ذكرنا هنا ما ذكرنا للاستشهاد فقط على مانحن بصدده ، ومن باب أن رواية الكفر ليست كفراً ، كما ذكر علماؤنا رحمهم الله تعالى .

وأمّا ما زعمه أولئك الكفرة وذكروه من التطاول على مقام النبيَ صلى الله عليه وسلم ، ومحاولة إلصاق التهم الرخيصة به صلى الله

---

(١) السابق .

(٢) الإسلام فى تصورات الغرب ص١٤٣ مع الهامش الثانى منها .

(٣) السابق ص١٢٥ .

عليه وسلم ؛ فمحض افتراء ، ولا يمتَ بشئ إلى الحقيقة ، ولا يسانده أيَ دليل صادق ، أو أثارة من علم .

فمن أين جاء الكاذب رودنسون بما جاء به من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غارقا فى أوحال الزنا ، وأنه حتى بعد ما تزوج كان صاحب ميول غرامية ، وأنه " ارتكب الزنا فى قلبه " وأن هناك شكاً فى أنه صلى الله عليه وسلم قد نجح فى التغلب على " نداء الغريزة " والتخلص منه ، وإخماد نار الشهوة ، وإطفاء لهيبها ؟! .

ومن أين جاء الخبيث " ديدرو " بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أفضل صديق للنساء ، بما تعنيه كلمة (صداقة) بين الجنسين فى العالم الغربى ، فالصداقة بين الرجال والنساء لدى الأروبيين تعنى علاقة عشق وغرام ، وحب (أى جنس) بين أيّ رجل وامرأة أجنبيين ؟! .

هل لِمَا افترياه من مرجع ؟! .

كلا ..

إن المراجع العلمية التاريخية التى بين أيدينا ، وخاصة المتعلقة بسيرته صلى الله عليه وسلم - وهى معروفة جيداً لدى المستشرقين واضرابهم - لترسم صفحة بيضاء نقيَة مشرقة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فى مراحل حياته كلها ، سواء منها ما كان قبل البعثة ، أم ما كان بعدها ، وتخبر بوضوح وصراحة أنه صلى الله عليه وسلم كان مثالاً للطهر والعفة والأمانة ، وكرم الشمائل ، وهو لهذا كان موضع ثقة

وتقدير معاصريه ، حتى أعدائه .

فلقد اجتمعت كلمة قريش ، واتفقت آراؤهم على تحكيم النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهم ، في مشكلة استعصت عليهم ، وكادت أن تُسلَّ السيوف من أجلها ، وهى مشكلة رفع الحجر الأسود ووضعه فى مكانه ، وقت أن كانوا يقومون بتجديد بنيان الكعبة .

روى ابن اسحاق أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسنّ قريش كلها ؛ قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ؛ فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم :هلمّ إلىّ ثوبا ، فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ؛ وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

وكانت قريش تُسمّى رسول الله صلى عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحيُ : الأمين (١) .

فهل كان يتأتىّ للقوم أن يضعوا ثقتهم فى محمد ، ويُجمعوا – وفيهم حكماؤهم وشيوخهم – على جعله حكما بينهم ، ويلقبوه بالأمين ، لو كان – كما يفترى أولئك المستشرقون – غارقا فى شهواته

---

(١) السيرة النبوية ١ / ١٩٧ - ١٩٨ .

الجنسية ، وميوله الغرامية ، ومنهمكا فى صداقاته مع النساء ، كما يزعمون ؟!

وهل يلقب بالأمين فى قومه من يكون مدنسا للأعراض فيهم ، هاتكا للحرمات ، كاشفا للأستار والعوارات ، ماجنا غارقا فى الشهوات والنزوات ؟

ثم إنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم أعداء ومناوئون كثيرون فى عصره ، كانوا حريصين على اهتبال أى فرصة ، واستغلال أى موقف يمكن أن يشوهوا من خلاله صورة النبي صلى الله عليه وسلم .

فلماذا سكتوا عن سلوكه صلى الله عليه وسلم ، و " ضلال شهوانيته " - على حد تعبير المفترى بورجشتال - ؟!

لماذا أغمضوا عيونهم ، وكفوا ألسنتهم عن فضح النبي صلى الله عليه وسلم ، بسلوكه وعلاقاته المحرمة مع النساء - حاشاه - ؟!

لماذا لم يقل قائلهم : انظروا إلى هذا الرجل الذى كان من أمره كذا وكذا ، كيف يأتى اليوم ويدعونا إلى الطهر والعفاف ، ومكارم الأخلاق ؟!

لماذا تركوا هذا المطعن الخطير ، ولم يثيروا هذه الشبهات ويشهروها فى وجه صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ؟! - لو كان لها وجود - .

هل لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان غريبا عنهم ، غامضا عليهم ؟

كلا .. فلقد لبث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة أربعين سنة ، وبعدها ثلاثا وعشرين ، حتى توفاه الله ، كانت حياته مكشوفة ، ليس فيها أسرار أو غموض ، ولذلك قال تعالى ردًّا على خصومه " فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون " (١) أى من قبل الوحي والقرآن .

إذاً فلماذا لم يثيروا هذا الذى يفتريه المستشرقون ؟

إن الإجابة ببساطة لاتعقيد فيها ؛ هى أنه لم تكن فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم انحرافات ، ولم يكن لديه من السلوكيات ما يجعله موضع نقد أو مؤاخذة ، بل كان سلوكه صلى الله عليه وسلم مشهوداً بالطهر والإشراق ، محفوفا بمكارم الأخلاق . فكان نبيلا شريفا ، وملء الأسماع والأبصار ، صلى الله عليه وسلم ، وكان بحق كما وصفه ربه فى قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) (٢) ، فهو أكرم الناس خلقا ، وأعفّهم نفسا ، وأطهرهم قلبا .

كان هذا بادياً لمناوئيه قبل محبيه ، وخصومه قبل أصدقائه ، عرفوا هذا النبل فيه ، فلم يجرؤوا على أن يفتروا عليه الكذب ، رغم مخالفتهم له ، أما المستشرقون – أصحاب المنهج العلمي فيما زعموا – فقد عرفوا أيضا هذا النبل الذى يكتنف شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، لكنهم أباحوا لأنفسهم الكذب والافتراء على الله ورسوله ، وراحوا يتجاهلون التاريخ المشرق ويتعامون عن الحقائق الناصعة فى

---

(١) سورة يونس : ١٦ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخترعون الأباطيل ، وينسجون الأساطير ، ويقلبون الأمور .. فبئس ما يصنعون .

إن النبي صلى الله عليه وسلم مامست يده يد امرأة لاتحل له ، وعندما أخذ البيعة على النساء لم يصافح واحدة منهن بيمينه .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : " كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام ، بهذه الآية : (لا يشركن بالله شيئا) ، قالت : وما مسّت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها " (١) .

ولقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم مليئة بالجد وتحمّل المسؤولية منذ فترة مبكرة ، فرعى الغنم ، وعمل بالتجارة ، وجد وكافح ، ولم يكن عالة على أحد ، فكان فى قومه مثالا للرجل المجد المثابر ، وقبل نزول الوحى عليه ، حبب إليه الخلاء ، فكان يمكث يتحنث فى غار حراء ويتعبد الليالى ذوات العدد ، وبعد أن كلفه الله بالرسالة زادات أحماله ، وكثرت أشغاله ، وعظمت مسؤولياته ، وتضاعفت همومه وأماناته ، وظل فى عمل دؤوب لنشر الإسلام ، حتى لقي الله ...

فمتى كان يفرغ للاستغراق فى قضاء الشهوات المحرمة – حاشاه

---

(١) رواه البخارى فى ك الأحكام . ب بيعة النساء . فتح البارى ١٣ / ٢١٦ رقم ٧٢١٤ ، وفى ك التفسير . تفسير سورة الممتحنة . ب إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات . فتح البارى ٨ / ٥٠٤ – ٥٠٥ رقم ٤٨٩١ ، وأحمد فى المسند ٧ / ٢٢٠ رقم ٢٤٦٧٢ .

صلى الله عليه وسلم – وكيف حظى بآلاف الأتباع من المسلمين فى عصره – لو كان كما يفترى المستشرقون ؟ كيف كان يحظى بالأتباع الكثيرين لو كان غير مستقيم السلوك ، قبيح السيرة – حاشاه صلى الله عليه وسلم – ؟!

إن كتب السيرة والتاريخ ، ليس فيها ما يؤيد ظن اولئك القوم السئ فى رسول الله صلى عليه وسلم ، وإنما هى مليئة بآيات العظمة والشموخ ، والنبل والطهارة ..

فهل عميت أبصار المستشرقين عن قراءة ذلك الحق ، أم انطمست بصائرهم عن تدبره ، أم أبت قلوبهم إلا جحوده وإنكاره ؟!

– حول زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب بنت جحش – رضى الله عنها – :

ويصر المستشرقون على نفس الاتهام الرخيص للنبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه كان – حاشاه – أسيراً لشهوته ، لا همّ له إلا إطفاء لهيبها بأى شكل كان ، دون مبالاة بأى شئ ، فنسجوا الأباطيل ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، فى قصة زواج النبي صلى الله عليه من السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها ، وتعسّفوا فى جعل القصة دليلا على دعواهم الخبيثة فى حق النبي صلى الله عليه وسلم ..

فبماذا جادت خيالاتهم ، وسالت أقلامهم ؟

ذهب المستشرقون والمبشرون – جريا وراء شهوة التشهير بالن

صلى الله عليه وسلم – إلى تصوير زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش على أنه كان لشهوة عصفت بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حيث شغف بها وهى تحت مولاه زيد بن حارثة ... عليه السلام ذهب لزيارته ، لا لشئ إلا أنه ربيب زيد ، وكان زيد غائبا . فاستقبلته زينب . وكانت فى ثياب تبدى محاسنها ، فوقع فى قلبه شئ من جمالها ، فقال سبحان مقلب القلوب ! ثم كرر هذه العبارة ساعة انصرافه ، فسمعتها زينب ، ورأت فى عينيه وهج الحب ، فأعجبت بنفسها ، وأبلغت زيداً ما سمعت فذهب من فوره إلى النبى ، يذكر له استعداده لتسريحها ، فقال له أمسك عليك زوجك واتق الله ، لكن زينب لم تحسن من بعد عشرته فطلقها ، وأمسك محمد عن زواجها وقلبه فى شغل بها ، حتى نزل قوله تعالى : "وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ....." إلى قوله سبحانه :"وكان أمر الله مفعولا (١) " عند ذلك تزوجها وأطفأ لهيب الشوق ووهج الحب فى نفسه ، مع أن هذا كان محرما فى الجاهلية ، فأباحه محمد إرضاء لهواه ، واستجابة لداعى حبه .

ويطلق المستشرقون و المبشرون لخيالهم العنان حين يتحدثون عن تاريخ محمد فى هذا الموضوع ، حتى ليصور بعضهم زينب ساعه رآها النبى وهى نصف عاريه أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بكل ما يكنه من كل معانى الهوى ، ويذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد ، لعب الهواء بأستار غرفة زينب ، وكانت ممددة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٧

الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها ، فكتم ما في نفسه ، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلا ... وأمثال هذه الصور التى أبدعها الخيال كثير .

تراه فيما كتبه مُوير ودِرْمنجم وواشنطن إرْفِنج ولامَنْس ، وسِبْرنْجر، وفِيْل ، وغيرهم من المستشرقين والمبشرين (١) .

وهذا الذى افتراه المستشرقون وأضرابهم ساقط ومتهافت بالمرة ، لأنه مجافٍ للحقيقة ، والروايات التاريخية الصحيحة ، ونستطيع أن نجلِّي تهافته وبطلانه على النحو التالى :

بداية يحسن أن نشير إلى أمر ، وهو قرابة السيدة زينب بنت جحش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ إنها ابنة عمته صلى الله عليه وسلم ، فأمها هى أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم (٢) ، وعبد المطلب هذا جد الرسول صلى الله عليه وسلم لأبيه ، كما يعرف المستشرقون والمبشرون .

وإذن فزينب ليست غريبة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى لم تكن مجهولة له ، ولا بعيدة عنه ، وقد تربت على عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رآها - بطبيعة الحال - وعرفها طفلة ، وصبية وشابة ، وعرفها بعد ذلك ، فليس هنا مجال إذن للادعاء أو

---

(١) حياة محمد . د / محمد حسين هيكل . ص٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٣٣٦ بتصرف . دار المعارف . مصر . ط السادسة عشرة . وراجع : مايقال عن الإسلام . للعقاد . مجموعة الأعمال الكاملة ٦ / ٥٣٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء . للذهبى ٢ / ٢١١ بتحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط الثامنة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد فوجئ بجمالها وحسنها بعد زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وأما زيد فهو ابن حارثة بن شراحبيل بن عبد العزى بن امرئ القيس ، وأمه سعدى بنت ثعلبة بن عامر ، زارت قومها وزيد معها ، فأغارت خيل لبني القَيْن فى الجاهلية ، فمروا على أبيات بنى معن ، فاحتملوا زيداً ، وهو يومئذ غلام يفْعَة ، فوافَوْا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبتْه له .

ثم علم أهله بمكانه ، فجاء أبوه حارثة وعمه كعب بن شراحبيل ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبان منه زيداً مقابل ما يشاء من الفداء ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبى وهذا عمى ، قال : فأنا من قد علمت ورأيت محبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما ، فقال زيد ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت فى منزلة الأب والعم . فقالا : ويحك يازيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم . إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه إلى الحِجْر فقال : يامن حضر اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه . فلما رأى أبوه وعمه طابت أنفسهما . فدعى من يومها زيد بن محمد (١) .

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ١ / ١٩٩-٢٠٠ بتصرف واختصار ، وراجع السيرة =

وقد كان للابن المتبنَّى عند العرب جميع حقوق البنوة وواجباتها .

ثم إن الله تعالى حرم التبنِّى بعد ذلك ، فى قوله سبحانه : " وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم " (١) .

فمنع الله تعالى بهذا الحكم ما كان من أمر التبنِّى ، وأمر برد كل أحد إلى نسبه الحقيقى ، وذكر أن هذا هو الحق والعدل ، ومن كان مجهول النسب ؛ فليعامل معاملة الأخ فى الدين والمولى .

عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن " ادعوهم لآبائهم هو أقسط عن الله " (٢) .

تلك زينب ، وهذا زيد . رضى الله عنهما ..

فماذا كان من أمر زواجهما وطلاقهما ؟

رأينا أن زينب كانت ذات حسب ونسب وشرف فى قومها ..

وأن زيداً كان عبداً ، ثم أُعتق ، ثم مُتَبَنًّى ، ثم رُدّ نسبُه إلى أصله الحقيقى ..

= النبوية ١ / ٢٤٧ - ٢٤٩ ، سير أعلام النبلاء ١ / ٢٢٠ وما بعدها .

(١) سورة الأحزاب ٤ - ٥ ، وتراجع كتب التفسير فى هذا الموضع .

(٢) رواه الترمذى فى ك التفسير . ب ومن سورة الأحزاب رقم ٣٢٢٠ .

وقد كانت العرب تقيم وزنا للفوارق الاجتماعية والطبقية ، لما كان مشهوراً عندهم من الاعتزاز بالنسب ، وبحسب ذلك العرف لا يقبل مثل أهل زينب بزواج ابنتهم من مثل زيد ..

ولهذا " أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة فى الجماعة المسلمة ؛ فيرد الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لأحد إلا بالتقوى ، وكان الموالى – وهم الرقيق المحرر – طبقة أدنى من طبقة السادة ، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى تبناه ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقق المساواة الكاملة بترويجه من شريفة بنى هاشم ، قريبته – صلى الله عليه وسلم – زينب بنت جحش ، ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه فى أسرته ، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعيّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ، وتسير البشرية كلها على هداه فى هذا الطريق " (١) .

ومن ناحية أخرى كان لزيد فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانة كبيرة ، ومحبة عظيمة ، قلَّ أن تزاحمها محبة أحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

قال ابن عمر : فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لى ، فكلمته فى ذلك ، فقال إنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٨٦٥ .

وسلم منك ، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك (١) .

ولذا سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويج زينب من مولاه زيد ، رضى الله عنهما ، وخطبها له فرفضت هى وأخوها عبدالله بن جحش ، فنزل قول الله تعالى : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً " (٢) .

قال الإمام ابن كثير : قال العوفيّ : عن ابن عباس رضى الله عنهما : قوله تعالى " وما كان لمؤمن ولامؤمنة " الآية . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى فانكحيه . قالت يارسول الله أؤمر فى نفسى (٣) . فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله .." الآية . قالت : قد رضيته لى يارسول الله منكحاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قالت : إذاً لا أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قد أنكحته نفسى (٤) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٢) سورة الأحزاب : ٣٦ .
(٣) أى أستخير .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٥٠٥ .

وتم الزواج ، ومكث زيد مع زينب قريبا من سنة أو فوقها (١) ، ولكن العشرة بينهما لم تكن على ما يرام ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو إليه مرة بعد مرة ، وفى كل هذا ينصحه النبي صلى الله عليه وسلم بالإبقاء على عشرتها وإمساكها ، وبأن يتقى الله فيها ، وكان الله قد أعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بأن زيداً سيطلق زينب ، وأنها ستكون زوجة له بعد ذلك ، لحكمة قدرها المولى تبارك وتعالى فى سابق علمه ، وهى إبطال آثار التبنّى ، التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ، ومنها أن مطلَّقة المُتبَنَّى تحرم على من تبنّاه كما تحرم مطلَّقة الابن الحقيقي .

قال تعالى : " وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه " (٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، قال أنس : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئاً لكتم هذه (٣) .

وروي عن على بن الحسين : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

---

(١) السابق ٣ / ٥٠٧ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٧ .

(٣) رواه البخارى فى ك التوحيد.ب : وكان عرشه على الماء . فتح البارى ١٣ / ٤١٥ رقم ٧٤٢٠ .

قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبى صلى الله عليه وسلم خلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية (اتق الله) فى قولك (وأمسك عليك زوجك) ، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أنه خشي الناس فى شئ قد أباحه الله له ، بأن قال : (أمسك) مع علمه بأنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أى فى كل حال ، والمراد بقوله (وتخشى الناس) إنما هو إرجاف المنافقين ، بأنه نهى عن تزوج نساء الأبناء ، وتزوج بزوجة ابنه (١) .

وآل أمر زيد وزينب رضى الله عنهما إلى الفراق .

هكذا تم الزواج بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعي منه ، وهكذا انتهت الحياة الزوجية بينهما ، ليكون ما أراده الله وقدره ، وهو زواج النبي صلى الله عليه وسلم منها ، لحكمة تشريعية ، لابد أن تتحقق بعمل واقعي ، ولأن هذا العمل سيكون سابقة مستنكرة ، وشديدة الوقع على الكثيرين فى المجتمع ، لمخالفته لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة ؛ اختار الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليتحمل عبء هذا العمل الشاق ، " فيتزوج من مطلقة متبنّاه زيد بن حارثة ، ويواجه بهذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٤ / ١٢٣-١٢٤ باختصار .

العمل ، الذى لايستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنِّى فى ذاتها " (١) .

قال الإمام ابن حجر : وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنّي بأمر لا أبلغ فى الإبطال منه ، وهو تزوّج امرأة الذى يُدعى ابنا ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم (٢) .

يقول الله تعالى : " فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا " (٣) .

قال صاحب الظلال - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية والتى تليها :

وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظه ، حُمِّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حُمِّل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية ، حتى ليتردد فى مواجهته بها ، وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد وذم الآلهة والشركاء ، وتخطئة الآباء والأجداد !

" وكان أمر الله مفعولا " .. لامردّ له ولا مفر منه ، واقعا محققا لا سبيل إلى تخلفه ولا إلى الحيدة عنه .

---

(١) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٨٦٨ .
(٢) فتح البارى ٨ / ٣٨٤ .
(٣) سورة الأحزاب : ٣٧ .

ولم تمر المسألة سهلة ، فلقد فوجئ بها المجتمع الإسلاميّ كله ، كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلة ابنه . ولما كانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن يؤكدها ، ويزيل عنصر الغرابة فيها ، ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية :

" ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له " فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء ، وإذن فلا حرج فى هذا الأمر ، وليس النبى صلى الله عليه وسلم فيه بدعا من الرسل . " سنة الله فى الذين خلوا من قبل " فهو أمر يمضى وفق سنة الله التى لا تتبدل ، والتى تتعلق بحقائق الأشياء ، لا بما يحوطها من تصورات وتقاليد مصطنعة لا تقوم على أساس .

" وكان أمر الله قدراً مقدوراً " فهو نافذ مفعول ، لا يقف فى وجهه شئ ولا أحد، وهو مقدر بحكمة وخبرة ووزن ، منظور فيه إلى الغاية التى يريدها الله منه، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها، وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحو آثارها عملياً، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية ، ولم يكن بد من نفاذ أمر الله (١) .

وهكذا كان زواج النبى صلى الله عليه وسلم من زينب بأمر الله ووحيه ، ولذلك كانت زينب تتباهى بأن الله زوجها من رسوله صلى الله عليه وسلم بوحى الأمين جبريل ، قال أنس : " فكانت زينب تفخر على أزواج النبى صلي الله عليه وسلم ، تقول : " زوّجكن أهليكن ،

---

(١) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٨٦٩ - ٢٨٧٠ باختصار .

وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات " (١) .

بقي شئ يتعلق به المستشرقون فيما ادعوه من افتتان النبيّ صلى الله عليه وسلم بزينب وولعه بها ، وهي في بيت زيد ، وهو وجود روايات تحمل هذا المعنى الفاسد ..

ولكن هذا الذى يتعلقون به أوهى من نسج العنكبوت ، إذْ إن هذه الروايات وأمثالها لا تنهض دليلاً لهم ، ولا تصلح متكأً يتكئون عليه فيما زعموه .. لأنها روايات قد كشف العلماء زيفها ، وأثبتوا بطلانها، ولم تثبت أمام التمحيص التاريخى الدقيق ، والنقد العلمى النزيه ، فضلا عن أنها تصطدم بما هو مقرر فى أصول الدين وأمهات العقائد من مبدأ عصمة النبيين ، وتنزههم عن أيّ عمل غير لائق بأحد من المسلمين .

وقد أفاد بعدم صحة هذه الروايات أئمة الدين ، وعلماء الإسلام ، ومنهم الإمام ابن كثير (٢) ، والإمام ابن حجر (٣) ، والإمام ابن العربى المالكي ، حيث قال : " وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد ؛ إنما الصحيح منها ما روى عن عائشة أنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما من الوحى شيئا لكتم هذه الآية " وإذ تقول للذى

---

(١) رواه البخارى فى ك التوحيد . ب وكان عرشه على الماء . فتح البارى ١٣/١٥٤ رقم ٧٤٢٠ . والترمذي فى ك التفسير ب ومن سورة الأحزاب رقم ٣٢٢٤ وقال حسن صحيح .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٥٠٧ .

(٣) فتح البارى ٨ / ٣٨٤ .

أنعم الله عليه ... " الآية " (١) .

قال القاضي : وما وراء هذه الرواية غير معتبر ، فأما قولهم : إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت فى قلبه فباطل ، فإنه كان معها فى كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذ حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها فى كل ساعة ، ولا تقع فى قلبه إلا إذا كان لها زوج ، وقد وهبته [أى زيد] نفسها وكرهت غيره ، فلم تخطر بباله [اى النبي صلى الله عليه وسلم] ، فكيف يتجدد له هوى لم يكن ، حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة (٢) .

هذا ما أحاط بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش من ملابسات ، وما استهدفه من أحكام وتشريعات ، كما تجليه لنا آيات القرآن البينات ، وحوادث السيرة وأصح الروايات ..

فأين هذا من مزاعم المستشرقين الباطلات ، وتخرّصاتهم الكاذبات ، وافترائهم على النبي محمد ، عليه من الله أكمل الصلوات ، وأتم التسليمات .

- تعدد زوجات النبيّ ﷺ :

ومما يرتكن إليه المستشرقون فى تأييد زعمهم الباطل بأن النبي

---

(١) أخرجه الترمذى فى ك التفسير ب ومن سورة الأحزاب رقم ٣٢١٩ وقال حسن صحيح .

(٢) أحكام القرآن . لابن العربى ، ٣ / ٥٧٧ . تحقيق محمد عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت . ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

صلى الله عليه وسلم كان رجلا مفرطا فى الشهوة الجنسية ، وصاحب ميول شهوانيه جامحة ؛ كون النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين أكثر من زوجة ، وتوفي عن تسع زوجات ، ويقولون بأن هذا لايقع إلا من رجل غارق فى لذات الجسد ونزواته ، راغب عن عفاف القلب وسمو الروح .

والواقع أن هذه حجة زائفة ، وشبهة ساقطة ، ولا تحتاج إلى كثير استدلال على إثبات بطلانها ، حيث إن قليلا من التأمل فى معرفة هؤلاء الزوجات الفضليات ، وظروف زواجهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أحوالهن المعيشية فى بيت النبوة ؛ يدحض مزاعم الاستشراق ، ويبين تهافتها ، ويؤكد سمو أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ، وعظمة شخصيته .

ترى ماذا يفعل الرجل الشهواني لوكان فى وضع مثل وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

لا شك فى أنه سيسعى للاقتران بأجمل فتيات العرب والعجم فى زمانه ، ويخادن من يشاء من النساء من هنا أو هناك .. فهل فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ؟

لننظر من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وملابسات زواجهن ، وذلك على النحو التالى :

لقد بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى عشرة امرأة ، مات فى حياته منهن اثنتان ، هما خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت

خزيمة ، وتُوفِّي عن تسع هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبى ضرار ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، رضى الله عنهن أجمعين (١) .

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها هى أول من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ذات سمعة نظيفة ، وسيرة حسنة فى قومها " قال الزبير بن بكار : كانت خديجة تدعى فى الجاهلية الطاهرة " . (٢)

وقد اختارت النبى صلى الله عليه وسلم ليتزوجها ، لما رأت من كرم أخلاقه ، ونظافة يده ، وطهارة قلبه ، وأمانته ، حينما دعته ليخرج إلى الشام متاجراً لها فى مالها ، وقبل النبى صلى الله عليه وسلم هذا الزواج ، فأخذ عمه حمزة وقيل أبا طالب بن عبد المطلب وخطبها إليه من أبيها خويلد بن أسد ، وقيل أخيها عمر بن خويلد .

وكانت خديجة رضى الله عنها قد تزوجت قبلْ النبي صلى الله عليه وسلم من رجلين ، أحدهما هو أبو هالة بن زرارة التميمي ،

---

(١) راجع : السيرة النبوية ٢/ ٦٤٣ -٦٤٨ ، وسير أعلام النبلاء ٢/١٠٩ ، ١٣٥ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ . والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢٥٤ وما بعدها ، تحقيق د / أحمد أبو ملجم وآخرين . دار الريان . القاهرة ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، والجامع لأحكام القرآن . القرطبى ١٤ / ١٠٧ - ١١١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ١١١ .

والآخر هو عتيق بن عابد بن عمر بن عبد الله بن مخزوم . وكان عمر النبي صلى الله عليه وسلم حين تزوجها ؛ خمساً وعشرون سنة ، وكانت هى أسنّ منه بخمسة عشرة سنة ، ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم عليها غيرها حتى تُوفيت رضى الله عنها (١) .

فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم رجل شهوة ، وصاحب ميول جنسيه مفرطة ؛ هل كان سيستهل حياته الزوجية والعاطفية بالاقتران بامرأة فى سنّ الأربعيين ، ، سبق لها الزواج من غيره مرتين وأنجبت فى كلتيهما ؟ ثم يحبس نفسه عليها قرابة خمس عشرة سنة إلى أن يتوفاها الله ، حيث جاء فى بعض الروايات أنها " كان لها حين توفيت خمس وستون سنة " ! (٢) .

وأما سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية ، فقد أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عمٍّ لها يقال له السكران بن عمرو ، وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها ، وقيل مات بالحبشة ، فلما حلّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها ، ودخل بها بمكة ، وهاجر بها إلى المدينة (٣) .

وهى التى وهبت يومها لعائشة ، رعاية لقلب رسول الله صلى

---

(١) أنظر السيرة النبوية ٢ / ٦٤٣ - ٦٤٤ ، سير أعلام النبلاء ٢ / ١١١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ١٠٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (السابق) .

(٣) السابق ١٤ / ١٠٨ .

الله عليه وسلم ، وكانت قد فَرِكَت ، رضى الله عنها (١) .

ومعنى فرِكت أى قلّ ميلها للرجال ، بسبب كبر سنها ، فتأمل فى زواج مثل هذه المسنَة رضى الله عنها ، وهى أرملة ، هل يكون إفراطا فى شهوة ، أم يكون رعاية لحالها ، وصيانة لها ؟!

وأما عائشة رضى الله عنها فقد خطبها بعد وفاة خديجة ، ولم يتزوج بِكْراً غيرها ، وتزوجها إكراما لصاحبه وخليله أبى بكر رضى الله عنه ، وتوثيقا للصلة بينهما ، " وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً ، وقيل بعامين ، ودخل بها فى شوال سنة اثنتين ، مُنْصَرَفه صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر وهى ابنة تسع " (٢) .

وأما حفصة بنت عمر - رضى الله عنهما - فقد توفيِ عنها زوجها خنيس بن حذافة السهميّ ، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فتوفّي بالمدينة ، وقد عرضها أبوها عمر بن الخطاب على عثمان بن عفان للزواج فاعتذر ، ثم على أبى بكر الصديق فصمت ، ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، توثيقا للرابطة التى تربطه بأبيها عمر بن الخطاب ، وليشرفه بمصاهرته كما شرف صديقه أبا بكر بذلك .

وأما أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، فإنها كانت أسلمت مع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٦٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ١٣٥ .

(٣) راجع تفصيل القصة فى صحيح البخارى ك النكاح ، ب عرض الانسان ابنته أو أخته على أهل الخير جـ ٦ ص ١٣٠ وسير أعلام النبلاء ٢ / ٢٢٨ .

زوجها عبيد الله بن جحش ، وهاجرا معا إلى الحبشة ، لكن زوجها تنصّر ، وفارق الإسلام ، حتى هلك هناك نصرانيا .

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في شأنها عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشيّ ، فخطبها عليه ، فزوجه إياها ، وأصدقها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مئة دينار (١) .

فهل كان من المناسب أن يتركها النبي صلى الله عليه وسلم تعود إلى أهلها - وكان أبوها يومئذ على الكفر وزعيما في قومه - فيفتنوها عن دينها ، ويكرهوها على الكفر ، أو يؤذوها إيذاءً لا قبل لها به ، أم أن المناسب في تلك الظروف أن يصونها ويتزوجها ؟

ثم إن في زواجه صلى الله عليه وسلم منها إيجاداً لصلة مصاهرة ، وفتحا لسبيل من العلاقة بينه وبين أبي سفيان رئيس قريش إذْ ذاك ، يمكن أن توظَّف لمصلحة الدعوة الإسلامية .

وأما أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية ؛ فكانت من المهاجرات الأوليات ، وكانت قبل النبي صلى الله عليه وسلم عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، الرجل الصالح (٢).

ثم توفّي عنها زوجها في سنة سبع من الهجرة متأثّراً بجرح كان قد أصابه في أُحد ، وترك لها صبية أيتاما في حجرها ، فلما انقضت عدتها خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت عن الموافقة بكبر سنّها ، وبأنها ذات صبية ، وبأنها شديدة الغيرة ، فقال لها عليه

---

(١) السيرة النبوية ١ / ٢٢٣ - ٢٢٤ بتصريف .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

الصلاة والسلام : " أنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عز وجل ، وأما العيال فإلى الله ورسوله ، فتزوجها " (١) .

وأما زينب بنت جحش فكان من أمر زواجها مافصّلنا في الصفحات السابقة ، وأنه كان بأمر الله عز وجل وبوحيٍ منه ، وذلك لحكم تشريعية واجتماعية أرادها الله تعالى ، فليرُجَع إلى ما كتب هناك.

وأما زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية ، وتدعى أمّ المساكين ، لكثرة معروفها ؛ فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد زوجها عبد الله بن جحش يوم أحد ، ولكن لم تمكث عنده إلا شهرين أو يزيد ، وتوفيت بعد ذلك رضى الله عنها (٢) .

وأما ميمونة بنت الحارث الهلالية ، فقد تزوجها أولا مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام وفارقها ، وتزوجها بعده أبو رُهم بن عبد العزى فمات ، فتزوج بها النبي صلى الله عليه وسلم في وقت فراغه من عمرة القضاء ، وبنى بها سنة سبع في ذى القعدة (٣) .

وأما جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقية ؛ فكان زواج النبي صلى الله عليه وسلم منها سببا في فكاكها ، وفكاك أسرى قومها من العتق ، حيث أعتقها النبي صلى الله عليه وسلم ، وتزوجها ليسُنّ بهذا سنة حسنة للمسلمين في عتق من بأيديهم خاصة السبايا ،

---

(١) رواه أحمد في المسند ٧ / ٤٣٤- ٤٣٥ رقم ٢٦٠٧٩ ، وانظر البداية والنهاية ٤ / ٩٢ – ٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢١٨ ، البداية والنهاية ٥ / ٢٥٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٣٨ – ٢٣٩ .

فكان زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً وبركة على قومها بنى المصطلق ، الذين كانوا يجمعون لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقيادة الحارث بن أبى ضرار والد السيدة جويرية ، ولكن الله أظفر رسوله عليهم ، وكان هذا سنة ستَ من الهجرة (١) .

قال ابن اسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت : لما قسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق ؛ وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس ، أو لابن عمٍ له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مَلاَحة لايراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، قالت عائشة : ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى ، فكرهتها وعرفت أنه سيرى فيها صلى الله عليه وسلم ما رأيت ، فدخلت عليه ، فقالت : يارسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك ، فوقعت فى السهم الثابت بن قيس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسى ، فجئت أستعينك على كتابتى ، قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يارسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت : نعم يارسول الله . قال : قد فعلت .

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبى ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت :

---

(١) راجع السيرة النبوية ٢ / ٢٨٩ - ٢٩٠ .

فلقد أُعْتِق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها (١) .

وعن الشعبي قال : أعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية ، واستنكحها وجعل صداقها عتق كل مملوك من بني المصطلق ، وكانت من ملك اليمين ، فأعتقها وتزوجها (٢) .

وهكذا أكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزواج من غير إكراه ، وصانها من الابتذال .

ثم إن أباها جاء يطلبها ، فخيّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البقاء معه والذهاب مع أبيها ، ولكنها حفظت الجميل ، وآثرت البقاء مع أكرم الناس صلى الله عليه وسلم ، والفوز بشرف أن تكون من أمهات المؤمنين .

" عن أبي قلابة قال : أتى والد جويرية ، فقال : إن ابنتي لا يُسْبى مثلها ، فأنا أكرم من ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيت إن خيّرناها " فأتاها أبوها فقال : إن هذا الرجل قد خيّرك ، فلا تفضحينا ، فقالت : فإني قد اخترته ، قال : قد والله فضحتنا " (٣) .

وأما صفيّة بنت حيي بن أخطب ؛ فقد كانت من جملة السبايا في غزوة خيبر ، سنة سبع من الهجرة ، وكانت تزوجت قبله عليه السلام

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٦٢ .
(٣) السابق ٢ / ٢٦٣ .

من رجلين ، ثم إن النبي صلى اللـه عليه وسلم أحسن إليها ، فأعتقها وتزوجها وأكرم عشرتها ، وجعل عتقها صداقها ([1]) . وفي هذا من الحنوّ والمعاملة الإنسانية الراقية ما لايخفى .

الحالة المعيشية فى بيت النبوة :

ونأتي بعد ذلك إلى أحوال المعيشة فى بيت النبوة ، من حيث رغد العيش وبسطته ، أو عدم ذلك .

إن رجلا فى وضع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : خزائن الأموال ، وفضول الثروات تحت يده ، ورهن إشارته ، يمكن أن يعيش فى ترف كبير ، ونَعيم مقيم ، يمتّع نفسه ، ويغمر نساءه بمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، يمتلئ بيته أو تمتلئ قصوره بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من صنوف الطعام ، وناعم الفراش ، ومالا يحصى من فاخر الثياب ، وفاره المركب ... إلى آخره ..

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا ؟

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعيش فى بيته عيشة الكفاف ، وعاش معه زوجاته رضوان الله عليهن حياة خشنة قاسية ، حتى إنهن لم يطقن الصبر على تلك المعيشة الجافة ، المحرومة مما تطفح به بيوت الملوك والرؤساء ، بل مما يكون عادة فى بيوت العوام والبسطاء ، فأعلنّ – فى يوم من الأيام – عن ضيقهن بهذه العيشة ،

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٣٣٦ ، سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٣١ – ٢٣٢ ، البداية والنهاية ٤ / ١٩٧ – ١٩٨ .

كما سنشير بعد قليل .

عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضى الله عنها : قالت : كان يمر برسول الله صلى الله عليه وسلم هلال وهلال وهلال ، ما يوقد فى بيت من بيوته نار . قلت : يا خالة على أى شئ كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمر والماء (١) .

وعن عائشة أيضا أنها قالت : والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ما رأى منخلا ، ولا أكل خبزاً منخولا منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض . قلت : كيف تأكلون الشعير ؟ قالت : كنا نقول أف (٢) .

وهذا الوضع كان يلاحظه من له صلة ببيت النبوة ، ولم يخف على أحد ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : " كان يمر بآل النبي صلى الله عليه وسلم هلال ثم هلال ، لا يوقد فى شئ من بيوتهم النار، لا لخبز ولا لطبخ، فقالوا: بأي شئ كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين التمر والماء ، وكان لهم جيران من الأنصار - وجزاهم الله خيرا - لهم منائح (٣) يرسلون إليهم شيئاً من لبن " (٤) .

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٧ / ١٢٦ رقم ٢٤٠٤٠ ، وص ١٠٤ رقم ٢٣٨٩٩ .

(٢) رواه أحمد فى المسند ٧ / ١٠٥ رقم ٢٣٩٠٠ .

(٣) مِنْحة اللبن أن يعطيه ناقة أو شاة ، ينتفع بلبنها ويعيدها . النهاية فى غريب الحديث والأثر . لابن الأثير ٤ / ٣٦٤ . تحقيق الطاهر أحمد الزاوى ، محمود محمد الطناحى دار الفكر . بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

(٤) رواه أحمد ٣ / ١٢٢ رقم ٨٩٩٦ .

وعن عمر رضي الله عنه – من حديث طويل - قال : ... فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع على حصير ، فجلستُ فأدنى عليه إزاره ، وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثّر فى جنبه ، فنظرت ببصرى فى خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، ومثلها قَرَظاً (١) فى ناحية الغرفة ، وإذا أفِيق (٢) معلق . قال : فابتدرت عيناى ، قال : ما يبكيك يابن الخطاب ؟ قلت : يا نبي الله ومالى لا أبكى وهذا الحصيرقد أثّر فى جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قيصر وكسرى فى الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته وهذه خزانتك ، فقال : يا بن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا . قلت بلى (٣) .

كان النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا العيش الخشن ، الذى اكتنف بيوته ، وأحاط بأزواجه ، ولو شاء لتخلص منه ، وعاش كما يعيش أرْغد الناس وأبسطهم نعمة ، ولكنه آثر أن يكون زاهداً فى الدنيا ، راغبا عنها ، مكتفيا بالقليل منها ، ليقينه بأن متاعها زائل ، وأن الآخرة خير وأبقى .

عن أبى أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) القرَظ : ورق السَّلم يُدبغ به . وقيل قشر البلّوط . مختار الصحاح ص٢٢٢ .

(٢) الأفيق : الجلد الذى لم يتم دباغه ، وجمعه أُفُق كأديم وأُدُم . مسلم بشرح النووى ٨٣/١٠

(٣) رواه مسلم فى ك الطلاق ب بيان أن تخييره امرأته لايكون طلاقا إلا بالنية . شرح النووى ١٠ / ٨٣ رقم ١٤٧٩ .

قال : " عرض عليَ ربّي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما - وقال ثلاثا أو نحو هذا - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك " (١) .

كان هذا وضع بيت النبوة من الناحية المادية ، فتضجر زوجات النبي من هذه المعيشة الخشنة ، والحياة الزاهدة أشد ما يكون الزهد ، والتي لم يعهدنها قبل زواجهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعن إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، واتّحدن في المطالبة بزيادة النفقة ، وكانت أزمة عصيبة مرت ببيت النبوة ، وزلزل المسلمون من أجلها زلزالاً شديداً ، حتى انقشعت بوحي من السماء ، واطمأنت النفوس إلى ما عند الله والدار الآخرة ، وإيثار ماعند الله تعالى من عظيم الأجر ، وكريم الجزاء .

وهذه القصة مشهورة في كتب التفسير والسنة والسيرة ، بحيث لا تخفى على المستشرقين الطاعنين الأفاكين ، وهم يعلمون قبل كل أحد أنها تهدم مزاعمهم ، وتدحض مفترياتهم ولذلك يتجاهلونها ، وتتعامى أبصارهم عنها .

قال تعالى : " يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما " (٢) .

---

(١) رواه الترمذي في ك الزهد ب ما جاء في الكفاف والصبر عليه رقم٢٣٤٧، وأحمد في المسند ٦ / ٣٣٩ رقم ٢١٦٨٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٨ - ٢٩ .

قال الإمام ابن كثير : هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن رضى الله عنهن وأرضاهن : الله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة (١) .

عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأُذن لأبى بكر ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذن له ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما (٢) ساكتاً ، قال :لأقولن شيئا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوَجَأْتُ (٣) عنقها ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : هن حولى يسألْننى النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يَجَأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبداً ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعا وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية : " يا أيها النبي قل لأزواجك " حتى بلغ " للمحسنات منكن أجراً عظيما " قال : فبدأ بعائشة ، فقال : يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمراً

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٩٦ .

(٢) واجماً : أى اشتد حزنه حتى سكت عن الكلام . شرح النووى ١٠ / ٨١ .

(٣) وَجَأَيَجَأُ : إذا طعن . السابق ١٠ / ٨٢ .

أحب ألاّ تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وما هو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لاتخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . قال : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثنى معنِّتاً ولا متعنتا ، ولكن بعثنى معلما ميسراً (١) .

واختار سائر زوجاته الطاهرات الله ورسوله والدار الآخرة ، فكان لهن من الله الكرامة فى الدنيا والآخرة . رضى الله عنهن أجمعين .

فهل يمكن أن تكون هذه حياة أو مسلك إنسان منغمس فى الشهوات المحرمة ، غارق فى أوحالها ، منهمك فى إشباعها ؟ .

ثم إن ما أنجزه النبي صلى الله عليه وسلم وشاده من أعمال ضخام ، ومهام جسام ، يقطع بأن حياته صلى الله عليه وسلم إن هى إلا حياة رجل جادٍّ بعيد عن سفاسف الأمور ، ومعيب السلوك ، ونازل الأخلاق .

بل إن ما قام به صلى الله عليه وسلم وأنجزه فى سنيّ حياته وعمره . ما كان ليحدث إلا على يد إنسان ربانيّ ، مؤيَّد بمدد من الله وتوفيق منه ، قويّ الصلة بربه ، قلبه مطمئن بالإيمان ، حياته مثل أعلى لكل خلق كريم وسلوك قويم ، وصورة حيّة صادقة لما يدعو

---

(١) رواه مسلم فى ك الطلاق ب بيان أن تخييره امرأته لايكون طلاقا إلا بالنية ، شرح النووى ١٠ / ٨٠ - ٨١ رقم ١٤٧٨ ، وأحمد ٤ / ٢٧٧ رقم ١٤١٠٦ .

إليه ، ويبلغه من وحْيٍ عن ربه الكريم العظيم ..

صلى الله وسلم وبارك عليك يارسول الله ..

وحسبك شهادة ربك لك ، بقوله تبارك وتعالى : " وإنك لعلى خلق عظيم " (١) .

ثانيا : القول ببشرية الإسلام ، وإنكار أنه دين إلهي :

وهناك ما يشبه الإجماع لدي المستشرقين - قديمهم وحديثهم - على أن الإسلام دين بشري ، اخترعه محمد ولفّقه من مصادر كثيرة ، على رأسها اليهودية والنصرانية ، ثم غيرهما من المصادر كالتقاليد التى كانت سائدة في عصره بالجزيرة العربية ، وبعض الديانات القديمة ...

وممن يجترّ هذا الباطل - على سبيل المثال - المستشرق الهولندي " رينهارت دوزي" المتوفي عام ١٨٨٣م ، في كتابه " تاريخ الإسلام " ، والمستشرق " فون كريمر " المتوفي عام ١٨٨٩م ، في كتابه " تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام" (٢) ، وكذلك المستشرق الألمانى " جريمه " فى كتابه " محمد " الذى أخرجه سنة ١٩٠٤م (٣) ، والمستشرق الألمانى " ولهلم رودلف " فى كتابه " صلة القرآن باليهودية

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) راجع الإسلام في تصورات الغرب ص ٣٠، ٣٤ وغيرهما

(٣) راجع : صور استشراقية ص ٩٤ .

والمسيحية " ([1]) والمستشرق " جرونيباوم" في كتابه "حضارة الإسلام" ([2]) والمستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" في كتابه "محمد" ([3]) وكثيرون غيرهم ساء ظنهم في الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام .

ولا ريب في أن أولئك المستشرقين – على اختلاف طوائفهم – لو كان لديهم قليل من الإنصاف والتجرد للحق ؛ لما وقعوا في هذا الإفك ، ولكن أنى لهم الإنصاف والعدل ، وهم في جملتهم مستأجرون لمحاربة الإسلام ، والصد عن سبيل الله ، وابتغائها عوجا .

وبداية نود أن نقول للمستشرقين كلمة ، بخصوص نفيهم ربانية الإسلام ، وانكارهم أن يكون الله تعالى قد أوحى به إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي :

إن كنتم تنكرون من حيث المبدأ أن يوحي الله إلى عبد من عباده بدين وشريعة ، ولهذا أنكرتم كون رسالة محمد إلهية ؛ فإن هذا ينسحب على رسالة موسى وعيسى عليهما السلام ، وعليه فليست اليهودية ولا النصرانية بشيء ، وينبغي عليكم أن تنكروا على موسى وعيسى عليهما السلام ما تنكرونه على محمد صلى الله عليه وسلم من أن يكون دينه إلهيا !

---

(١) السابق ص٤٩ وما بعدها ، وانظر : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ملحق بكتاب الفكر الإسلامى الحديث ص٤٧٥ – ٥٠٢ .

(٢) ص١٤ ، ٩٤ ، ١١٨ وغيرها .

(٣) الفرنسى السافل فى الجامعة الأمريكية ، مقال بجريدة الشعب (مرجع سابق) .

وأما إن كنتم تؤمنون بمبدأ الوحى ، وتعتقدون أن الله تعالى يمكن أن يوحى إلى من يشاء من عباده بالدين والشرائع ، ويكلفه بالرسالة والنبوة ، كما أوحى إلى موسى وعيسى عليهما السلام ؛ فما المانع من أن يكون ما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وحيا من عند الله ؟!

ما الذى يمنع من أن يرسل الله رسولا عربيا بالرسالة الخاتمة ، والشريعة الإلهية التامة الكاملة ؟!

ولا حرج على فضل الله ..

الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير (١) .

لماذا تجيزون أن يوحى الله برسالة إلى نوح ، وإبراهيم ، وداود وسليمان ، وأيوب ، وموسى وعيسى ، وتمنعون أن يوحى الله برسالة الإسلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام ؟!

إن الذى أوحى إلى الأنبياء السابقين ، هو الذى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بالدين .. وصدق الله إذ يقول : " إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده " (٢) .

إن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جاءت خاتمة الحلقات

---

(١) سورة الحج : ٧٥ .

(٢) سورة النساء : ١٦٣

فى سلسة الوحي الإلهى إلى الخليقة ، الذى ابتدأ منذ آدم عليه السلام ، وقد بشر الأنبياء السابقون برسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : " وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديَ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد " (١) .

وفى الكتاب المقدس الذى يؤمن اليهود بالعهد القديم منه ، ويؤمن النصارى بعهديه القديم والجديد ؛ بشارات عديدة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، كشف عنها العلماء ، ويمكن الرجوع إليها مفصلة فى كتب مقارنة الأديان (٢) .

هذا ؛ ويغرق المستشرقون فى الافتراضات والتخرصات التى يحاولون بها إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أتى بدينه من التراث اليهودى والتراث النصرانى وغيرهما ، ولهم فى ذلك تخمينات لاينقضى منها العجب ، حتى إن بعضهم - فى كثير من الأحيان - ليهدم ما افترضه البعض الآخر .

---

(١) سورة الصف : ٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة . للإمام القرافى . تحقيق د/ بكر زكى عوض ص ٤١١ - ٤٥٧ ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م ، بشرية المسيح ونبوة محمد صلى الله عليهما وسلم فى نصوص كتب العهدين . للشيخ رحمة الله الهندى . إعداد د/ محمد أحمد ملكاوى ص ٢٠١ - ٢٧٨ ط الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ، إظهار الحق . تأليف الشيخ رحمة الله الهندى ، تحقيق د/ أحمد حجازى السقا ٢ / ٢٣٩ - ٣٠٠ دار التراث العربى . القاهرة . ط الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

" وأقوال هؤلاء القوم تضطرب اضطرابا واسعا ، فبينما يعزو بعضهم عمل محمد صلى الله عليه وسلم إلى فكر سياسى محض ، يرى آخرون أن فكرة التوحيد ملكت عليه كل مشاعره ، فنفى من اليهودية والمسيحية كل فكر يخالفها ، وبينما يرى درمنجيم الفرنسى أن بحيرا الراهب هو مصدر هذا الفكر ومثاره فى ذهن محمد ، يتخذ (وات) من قصة بحيرا هذا مثار سخرية ، ويرى أنها من عمل الرواة الإسلاميين ، ويجاري درمنجيم من مستشرقى الإنجليز (رودويل) و(مرجليوث) و (بل) و (جيوم) ، وبعض هؤلاء توسع فى افتراضاته حتى أبدى كل مسيحى أو يهودى أو طارئ على مكة والمدينة من ذوى الثقافة والدرس ؛ أفاد محمداً صلى الله عليه وسلم بشيء ، حتى إنهم يذكرون زوجته مارية القبطية ، وسلمان الفارسى ، وزوجيْه جويرية وصفية " (١) .

بل إن أحدهم ليتعب نفسه أحيانا فى تخيل الافتراضات والتخمينات ، ثم يقرر هو بنفسه في نهاية المطاف أنه لا يوجد ثمة دليل يعضد مفترضاته (أو بالأحرى مفترياته) ، مثل ما حدث من المستشرق اليهودى الألمانى ولهلم رودلف ، إذ يقول :

" إننا لمضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل إلى مكة التى يعنينا أمرها كثيراً ، لأنها موطن محمد ، وإن لم يكن ثَمَّ ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد ، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم ، وإلاّ لاحتفظت لنا السير بأنباء

---

(١) صور استشراقية ص ٣٥ .

أكثر اسهاماً مما تناهى إلينا " ([1]) .

ولو تتبعنا ما يتعلق به جمهور المستشرقين من حجج ، لإثبات أن الإسلام مأخوذ من اليهودية والنصرانية وغيرهما ؛ لو جدناها فى غاية الضعف والوهن ، إذْ إنها – فى جملتها – عبارة عن افتراضات وظنون وتخمينات ، لا تثبت أمام الحقائق الدامغة التى تنطق بها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما تحتويه دعوته عليه السلام من عقائد وتشريعات .

إن الثابت من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا ما أكده القرآن الكريم ، فى قول الله تعالى : " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون " ([2]) .

فكيف تأتَى له عليه الصلاة والسلام أن يطالع فى الكتاب المقدس بعهديْه ، أو التلمود ، ويحصّل مافيه ، وهو الأمّيّ الذى لا عهد له بالقراءة ولا الكتابة ، كشأن كثيرين من العرب فى عهده صلى الله عليه وسلم ؟

ومع افتراض أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجيد القراءة والكتابة ، فلن يتسنى له أن يطالع فى الكتاب المقدس ويحصّل ما فيه ، لأنه لم تكن هناك نسخ منه مترجمة إلى اللغة العربية ، متوفرة ومتاحة

---

(١) السابق ص ٥٠ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٨ .

من أراد الاطلاع عليها من العرب فى الجزيرة العربية ، وخاصة فى مكة مهبط الوحى الأول ، والتى لم يكن لليهودية والنصرانية فيها - إذ ذاك - وجود يذكر .

جاء فى " قاموس الكتاب المقدس " حول ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ما يلى :

" إن انتشار الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية بعد موت محمد (٦٣٢م) تبعه ترجمات كثيرة للكتاب المقدس فى اللغة العربية ، ومن الممكن أن ترجمات جزئية وجدت قبل الإسلام ، وفى القرن السابع كان يستعملها مسيحيو الشرق ، وإننا نعرف أكيداً عن وجود ترجمة قام بها يوحنا أسقف إشبيلية فى أسبانيا عام ٧٢٤ قاصداً أن يساعد المسيحيين والمغاربة بواسطتها . وقد اكتشف حديثا مخطوطات لأجزاء من الكتاب المقدس فى مكتبة دير القديسة كاترين ، بعضها مؤرخ يرجع إلى القرن التاسع الميلادى ، وبعضها من غير المؤرخ ويرجع إلى القرن الثامن الميلادى " (١) .

فليس هناك إذاً دليل قاطع على وجود ترجمة للكتاب المقدس بالعربية ، يمكن أن يفيد منها النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على علم بأى لغة أجنبية ، لا سيما التى كان الكتاب المقدس مكتوبا بها ، فى عصره صلى الله عليه وسلم .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس . تأليف نخبة من ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين . ص ٧٧١ . دار الثقافة ، القاهرة . ط التاسعة ١٩٩٤م .

وأما المفترضات العريضة بأن أشخاصا ما لابد أن يكونوا معلمي محمد ، ومصدر تلقين له مثل ورقة بن نوفل ، وبحيرا الراهب ، وسلمان الفارسي ، وبعض أحبار اليهود والموالى ، والتجار ، وغيرهم كثير ممن جادت بهم قرائح المستشرقين وخيالاتهم الواسعة ؛ فليس في كتب السيرة والتاريخ ما ينهض دليلا مسعفا لأيٍّ من تلك المفترضات ، والمستشرقون أنفسهم هدم بعضهم ما افترضه البعض الآخر ، وقد أشرنا إلى مثال لهذا الاضطراب منذ قليل .

وعلى افتراض أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم على يد هؤلاء المعلمين الكثيرين الذين زعمهم المستشرقون ؛ ألا يحتاج هذا التعلم إلى أوقات كثيرة ، بل إلى انقطاع للدرس والتحصيل من جانب محمد بن عبد الله ؟ ويحتاج كذلك إلى أسفار ورحلات هنا وهناك وهنالك للأخذ عمن هو خارج مكة منهم ؟

فمتى كان هذا الانقطاع والتردد على هؤلاء المعلمين من جانب محمد ؟ ومتى كان هذا السفر والترحال للأخذ عمن هو خارج مكة ؟ ولو حصل شئ من هذا لكان مشهوراً ، ومعروفا للقاصى والدانى من معاصريه ، خاصة خصومه ومعارضيه ، ولا تخذوه سلاحا يشهرونه فى وجهه ، حينما يقول لهم إن الله أرسلني إليكم بهذا الدين ، ولقالوا له هل نسيت أن الذى علمك هذا كله ولقّنك إياه فلان وفلان من هنا أو هناك ، فكيف تزعم أن الله أوحى إليك به ؟ ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ، ليس فيها مايشير إلى ذلك وأمثاله ، بل فيها ما يفنده ويدحضه .

فقد ولد صلى الله عليه وسلم يتيما ، وقضى طفولته الباكرة فى ديار بنى سعد عند مرضعته السيدة حليمة السعدية رضى الله عنها ، ثم بعد ذلك عاد إلى مكة ، وبقي فى كفالة جده عبد المطلب ، ثم كفالة عمه أبى طالب بعد وفاة جده عبد المطلب ، وقضى جزءاً من طفولته فى رعي الغنم ، ثم انتقل بعد ذلك فى التجارة ، والمعروف أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى الشام مرة فى تجارة مع عمه وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وهى المرة التى لقى فيها الراهب بحيرا لقاءًا عابراً ، ثم مرة أخرى فى تجارة السيدة خديجة رضى الله عنها ، وبعد ذلك تزوجها ، وبقى فى مكة ، ثم مالت نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم إلى العزلة ، ثم أخذ يتحنث فى غار حراء ويبقى فيه الليالى ذوات العدد ، حتى نزل عليه الوحي بقوله تعالى " اقرأ " (1) ، وبعدها بدأت مسيرة الدعوة ، والجهاد المتواصل ، حتى أتاه اليقين .

أليست هذه حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بإجماع كتب السيرة والتاريخ ؟ فهل كان فيها فرصة للتنقل بين يدى هذا المعلم أو ذاك فى مكة أو خارجها ؟

ثم إن الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحتوى على بضعة مبادئ ، أو قليل من التشريعات ، وإنما اشتمل على عقائد ، وعبادات ومعاملات وأخلاق ؛ اشتمل على ما ينظم أمور الناس فى معاشهم ومعادهم .

فكيف تسنّى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتعلم ويحصّل كل

---

(١) سورة العلق : ١ .

هذا وهو ثاوٍ فى مكة ، لم يبرحها إلا فى رحلتين تجاريتين إلى الشام ، إحداهما وهو صبي فى الثانية عشرة من عمره ، والأخرى وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ؟

وكيف تسنّى له أن يتعلم كل هذا ويحصّله ، وهو الأمّي الذى لم يقرأ ولم يكتب ؟

ثم إننا سنفترض جدلا أن الإسلام ملفق من اليهودية والنصرانية ، وأنه – على زعم المستشرقين – فرع منبثق من هذين الأصلين ، وصورة عنهما ، واقتباس منهما ..

وعلى هذا الافتراض نتساءل : أليس ثمة علاقة بين الأصل والفرع ، أو بين الأصل والصورة ، وبين المنقول والمنقول عنه ؟ وإذا كانت هناك علاقة – وهذا كائن – فهل هي علاقة تضاد وتناقض ، أم هي علاقة تشابه وتطابق ؟

إن الذي يشهد به الواقع أن الفرع يكون عادة مشابها للأصل ، وأن الصورة تكون مطابقة للأصل ، وأن بين المنقول والمنقول عنه قواسم مشتركة كثيرة .. هذا واقع لاينكره إلا غافل أو متجاهل ..

إذا كان الإسلام – كما يزعم المستشرقون – فرعا منبثقا من اليهودية والنصرانية ، وملفقا من كليهما ؛ فهل جاءت عقائده وتشريعاته مماثلة لعقائد وتشريعات كل منهما ، أم مخالفة لها ومناقضة ؟

الواقع أن الإسلام خالف كُلاًّ من اليهودية والنصرانية في

الجوهر ؛ في الصميم .. في الأصول .. وهذا بادٍ لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فإذا كان هذا الخلاف الجوهريّ قائما وواقعا منذ أول لحظة بعث فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون الإسلام مأخوذا من اليهودية والنصرانية ، وأي شئ يكون قد أخذه إذن ؟

هل أخذ منهما عقيدة التوحيد ؟

هل أخذ منهما الإيمان بعصمة الأنبياء ؟

هل أخذ منهما عقيدة الإيمان بأن الله - تعالى - يجب له كل كمال يليق بذاته ، ويستحيل في حقه كل نقص ؟

هل أخذ منهما أن عيسى لم يصلب ، ولم يقتل ولكنه رفع إلى السماء ، وأنه بشر رسول ، ليس إلا ؟

هل أخذ منهما الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وإيتاء الزكاة ، وأحكام الجهاد ، على النحو المفصل في الشريعة الإسلامية ؟

هل أخذ منهما أحكام الزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، وتشريع المواريث ... ؟

إنّ كل هذا الذي تساءلنا بحقه ، وغيره كثير ، لا وجود له عند اليهود والنصارى ، إنما الذي عندهم نقيض له تماما !

فكيف يكون الإسلام صورة عن اليهودية والنصرانية ، وبينه وبينهما خلاف واسع ، وبون شاسع ؟

ولو افترضنا أن ثمة تشابها بين الإسلام ، وكل من اليهودية والنصرانية في شئ ما ، فهذا ليس دليلا على أنه مأخوذ منهما ، وإنما يكون دليلا على وحدة المنبع والمصدر ، وهو الوحي الإلهي .

ونحن المسلمين نعتقد أن هناك أصولا مشتركة بين الرسالات جميعا ، ما من نبي أو رسول إلا جاء بها ، ودعا قومه إليها ، ومن ذلك العقائد وهي الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، وكذلك أصول الأخلاق ، وأصول العبادات ، كالصوم والصلاة والزكاة ونحوها ، وإن كانت كيفية هذه العبادات قد تختلف من شريعة لأخرى ، لكن أصلها موجود عند الجميع ..

قال تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " (١)

فلو كان ثمة تشابه في أمر ما فمرده إلى هذا الذي ذكرنا ، لا إلى أن الإسلام مقتبس من غيره .

هذا ، وللقوم في هذا الباب مغالطات كثيرة ، كلها على هذا النهج ، ولو تتبعناها لطال بنا الحديث ، وهي جميعا تخمينات

---

(١) سورة الشورى : ١٣

وافتراضات لا أساس لها من الحقيقة - كما رأيت - وحسبنا تلك الوقفة القصيرة التى كشفت زيف مزاعمهم ، وبطلان اتهامهم ، لننتقل إلى صورة أخرى من مفترياتهم .

ثالثا قصص القرآن الكريم والعهد القديم :

وتأسيسا على القول ببشرية الإسلام ، وأنه دين ملفق ، وخليط من مصادر كثيرة - كما يزعم المستشرقون - زعموا أيضا بأن القرآن الكريم ليس وحياً من عند الله ، وإنما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم من عند نفسه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، كما زعم ذلك من قبلهم الكفار المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأتوا في سبيل إثبات هذا الادعاء بافتراضات وتخرّصات لاتنقضي ، ولاينقضي منها العجب . (١)

وكما أن النغمة السائدة عند جمهور المستشرقين هي أن اليهودية والنصرانية هما مصدر الإسلام ؛ كذلك نرى أن كثيرين منهم يذهبون إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اعتمد في تأليف القرآن -زعموا- على الكتاب المقدس ، خاصة العهد القديم ، وأن هذا الاعتماد كان بوسائل كثيرة ، لا وجود لها إلا في خيالاتهم وأوهامهم .

---

(١) انظر تفصيل هذا في كتاب : الاستشراق والقرآن العظيم . د/ محمد خليفه . نقله إلى العربية مروان عبدالصبور شاهين ص٣٧ وما بعدها . دار الاعتصام . القاهرة ط الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.وكذلك البحث القيم : مدخل إلى القرآن الكريم للأستاذ الكبير الدكتور / محمد عبدالله دراز ، وخاصة الباب الثالث ص ١٢٥ وما بعدها . ترجمة محمد عبدالعظيم على . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٩٠م .

وأريد أن أقف هنا مع واحد من تلك المزاعم التى أثيرت بهذا الخصوص ، وهو الزعم بأن قصص القرآن الكريم ليس إلا ترديدا لما اقتبسه الرسول صلى الله عليه وسلم من العهد القديم كما ادعى بعض المستشرقين .

وممن يتشدقون بهذا الرأي:مكسيم رودنسون في كتابه "محمد" ، إذ يقول " إن قصص القرآن ما هي ترديد لما تعلمه محمد وسرقه من الأديان السابقة ، ومن الكتب اليهودية " (١)

ويرى " ريتشاردبل " مؤلف كتاب " مقدمة القرآن " أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اعتمد فى كتابته للقرآن على الكتاب المقدس ، وخاصة على العهد القديم فى قسم القصص ، فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ، ولكن الجانب الأكبر من المادة التى استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ، ونصرانية ، وقد كانت فرصته فى المدينة للتعرف على ما فى العهد القديم أفضل من وضعه السابق فى مكة ، حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية فى المدينة ، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل (٢) .

والواقع أن من له أدنى اطلاع ومعرفة بالقصص فى كل من العهد

---

(١) كتاب يجب وقفه ، صلاح منتصر ، جريدة الأهرام (مرجع سابق) ، نقلا عن كتاب " محمد " ص ١٥١ .

(٢) الاستشراق والخلفيه الفكرية ص ١٠٢ نقلا عن : المستشرقون والإسلام د/ ابراهيم اللبان ص ٤٤ – ٤٥ .

القديم والقرآن الكريم يلحظ تهافت هذا الزعم وأمثاله ، ومجافاته للحقيقة والصواب ، ويدرك بعد ما بين القصص فى كليهما كبعد ما بين المشرق والمغرب ، ويقطع بأن العهد القديم لم يكن أبداً مصدراً للقصص فى القرآن الكريم .

إن قصص القرآن الكريم يتفرد بخصائص وميزات تجعله يختلف عما فى العهد القديم من قصص وغيره مظهراً وجوهرا ، وشكلا ومضمونا ، ومبنى ومعنى .

فالخلاف واضح جداً بين أسلوب هذا وأسلوب ذاك ، ومضمون هذا ومضمون ذاك .

ونقصد بالأسلوب طريقه عرض القصة ، وصياغة أحداثها وسياقها ، وتراكيب ألفاظها وعباراتها .. وهكذا ، وبالمضمون مايحمله الأسلوب من معانٍ ويتضمنه من أفكار ، ويحتويه من قضايا ومعتقدات .. ونحو هذا .

الاختلاف فى الأسلوب :

وأول مايطالعك فى أسلوب القصه فى العهد القديم هو الركاكة ، وهبوط المستوى الذى يصل أحيانا إلى حد الاسفاف ، فكيف يكون أسلوب القرآن الكريم – وهو القمة فى البلاغة ، وسمو العبارة ، ورفعة المستوى – كيف يكون هذا مأخوذاً من الأسلوب الهابط الركيك والمسف أحياناً ؟! والذى لا تخطئه العين من أول وهلة ؟ ولا يخفى على طالب في سنوات التعليم الأساسية .

وها هى ذى بعض الأمثلة على أسلوب العهد القديم :

جاء فى سفر التكوين :-

" فى البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعى الله النور نهاراً ، والظلمة دعاها ليلاً ، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا " (١) .

" فأُكملت السماوات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً " (٢) .

" وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكرا وأنثى خلقهم " (٣) .

وفى سفر هوشع :

" أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع إذهب خذ لنفسك

---

(١) تكوين ١ / ١ - ٥ .

(٢) السابق ٢ / ١ - ٣ .

(٣) السابق ١ / ٢٦ - ٢٧ .

إمرأه زنى وأولاد زنى ، لأن الأرض قد زنت زنى تاركه الرب ، فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا فقال له الرب ادع اسمه يزرعيل لأننى بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل ويكون فى ذلك اليوم أنى أكسر قوس إسرائيل فى وادى يزرعيل " (١) .

وفى سفر نشيد الإنشاد :

" ما أجمل رجليك بالنعلين يابنت الكرام . دوائر فخذيك مثل الحليَ صَنْعة يديْ صنّاع . سُرّتك كأس مدورة لا يُعْوزُها شراب ممزوج . بطنك صُبرة حنطه مُسيّجة بالسوسن – ثدياك كخشفتين توأمى ظبية ، عنقك كبرج من عاج " (٢) .

" ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات . قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد ، قلت إنى أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة أنفك كالتفاح ، وحنكك كأجود الخمر لحبيبى السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين " (٣) .

فهل هذه الركاكة والسذاجة وهذا الإسفاف فى الجمل والعبارات وذاك التدنى فى الأسلوب ، يمكن أن يكون مصدرا لأرقى كلام وأفصحه ، وأسمى أسلوب وأعفه ؟!

---

(١) هوشع ١ / ٢ – ٥ .

(٢) نشيد ٧ / ١ – ٤ .

(٣) أيضا / ٦ – ٩ .

ومن يمكن أن تكون هذه الركاكة والسفالة ، والتطاول على ذات الله العلية ، وحياً من عند الله تعالى ؟!

أين هذا من أسلوب القرآن الكريم الذى يُشرق بالفصاحة،ويتألق بالبلاغة،ويفيض بالأدب،ويتسم بالرصانة ؟

ولنذكر بعض آيات الذكر الحكيم ، دون تعليق ، تاركين المجال للذهن والعقل ، كى يتدبر ويتأمل فيها .

قال تعالى : " قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم " (١) .

وقال سبحانه : " ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين * وراودته التي هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون * ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المُخلَصين * واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر وألفيا سيّدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هى راودتنى عن نفسي

---

(١) سوره فصلت ٩ - ١٢

قال تعالى : " ليس كمثله شئ وهو السميع البصير " (١) .

وقال سبحانه : " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " (٢) .

وقال سبحانه : " ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب " (٣) .

وقال جل شأنه : " لا يضل ربى ولاينسى " (٤) .

وقال تبارك وتعالى : " وما كان ربك نسيًا " (٥) .

وقال عز من قائل : " قل إن الله لا يأمر بالفحشاء " (٦) .

وأمثال هذا التنزيه ، والثناء على الله - تعالى - بما هو أهله ، فى القرآن كثير .

وأما حديث العهد القديم عن ذات الله تعالى ، وخاصة فى القصص منه ؛ فيختلف تماما عما فى القرآن ، حيث إن قصص العهد القديم يطفح بوصف الذات الإلهية بما لا يليق به سبحانه وتعالى ، وذلك منذ أول إصحاح من أول سفر فيه ، ومن مظاهر ذلك ما يلى :

فى سفر التكوين ، عند الحديث عن بدء الخلق ، تطالعنا هذه

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٣ .

(٣) سورة ق : ٣٨ .

(٤) سورة طه : ٢٥ .

(٥) سورة مريم : ٦٤ .

(٦) سورة الأعراف : ٢٨ .

وشهد شاهد من أهلهـا إن كـان قميصـه قُدَّ مـن قُبُل فصدقت وهـو مـن الكاذبين * وإن كان قميصه قُدَّ من دبـر فكذبت وهـو مـن الصـادقين * فلمّا رأى قميصه قُدَّ مـن دُبُـر قـال إنـه مـن كيدكـن إن كيدكـن عظيـم * يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين "(١).

الاختلاف فى المضمون :

وإذا ماجئنا إلى المضمون ، وجدنا اختلافات جوهرية فى الأفكار والقضايا والمعتقدات ، بين مافى القرآن الكريم وما فى العهد القديم (٢).

ونذكر هنا بعض أوجه هذه الاختلافات ، فيما يلى :

أ- الاختلاف فى وصف الذات الإلهية :

إن قصص القرآن الكريم لا يصـف الذات الإلهيـة إلا بكل كمـال يليق بجلال الله تعالى ، بل إن السمة البارزة فى القرآن كله هـى تنزيـه الله عز وجل عن كل ما لايليق بـه تبارك وتعـالى ، فليس فـى القرآن الكريم عند الحديث عن ذات الله تعـالى إلا هـذا التنزيـه والتعظيـم والإجلال لله رب العالمين .

---

(١) سورة يوسف ٢٢ - ٢٩ .

(٢) قد يوجد تشابه فى بعض الأحداث فى بعض القصص التـى ورد ذكرها فـى كل من القرآن الكريم والعهد القديم ، ولكن هذا التشـابه ليس دليـلا علـى الاقتبـاس ، لأن هنـاك اختلافات فى الجوهر بشكل عام - كما سنشير الآن - وإنما هذا التشابه مرده إلـى وجـود بقايا من الوحى كتبها كُتَّاب العهد القديم فـى عصـور مختلفـة ، غير أن هذه القلـة القليلـة توارت خلف ركام الباطل ، وتلاشت فى ثنايا موجات التحريف كما تتلاشى قطرات المـاء العذب الفرات فى وسط البحر الملح الأجاج ، ولم يبـق لـدى القوم من الوحـى إلا رسـوم وأشكال مملوءة بالزور والأباطيل .

العبارة :

" فى البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على الماء " (١) .

فانظر إلى هذا التعبير الساذج الوثني ، بحق الله تعالى ، فأين كان الله تعالى قبل أن ترف على وجه الماء روحه ، وإلام صار بعد أن كانت ترف على وجه الماء كما ترفرف الحمامة ؟

وماذا بعد :

" وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن " (٢).

وبعد ما خلق اليابسة وجعل البحار والأشجار والعشب ، يقول السفر : " ورأى الله ذلك أنه حسن " (٣) .

وتتكرر هذه العبارة عقب كل خلق يخلقه فى كل يوم ، إلى نهاية ما خلق فى اليوم السادس " ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً " (٤) .

ألم يكن الله يعلم سلفا حقيقة ما سيخلقه ، وما سيكون عليه من الحسن أو القبح ، أم أنه قام بتجربة ونجحت ، فأعجب بها ، ورآها ابتكاراً يسر الناظرين ، وكان لا يتوقع ذلك ؟!

---

(١) تكوين ١ / ١ – ٢ .

(٢) السابق / ٣ – ٤ .

(٣) السابق / ١٢ .

(٤) أيضاً / ٣١ .

ثم يقول السفر :

" وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا " (١) .

فانظر كيف أن كاتب السفر – قبّحه الله – يصوّر الله تعالى بصورة من يعتريه النصب ، ويحل به التعب ، فيحتاج إلى الراحة بعد أداء العمل ، شأنه فى ذلك شأن المخلوقين ذوي القدرة المحدودة ، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيرا .

ويتابع سفر التكوين – فى معرض الحديث عن قصة آدم وحواء وأكلهما من الشجرة – قائلا :

" وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة ، فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت " (٢) .

فهل الله تعالى يشبه خلقه " ما شيا فى الجنة " ، وهل عِلْمُ الله قاصر وإحاطته بالكون محدودة ، بحيث لا يرى إلا ما تقع عينه عليه ، ولا يرى ما يتوارى عنه خلف شجرة أو نحوها ؟ وهل يليق أن يكون هذا وصفا للإله الخالق ؟ حاشا لله .

---

(١) تكوين ٢ / ١ – ٣ .

(٢) تكوين ٣ / ٨ – ٩ .

ونرى سفر الخـروج يُكرِّس ويؤكِّد نفس الوصف فـي حـق اللـه تعالى ، حيث يصوّر كاتب السفر الله - تبارك وتعـالى عمـا يقولـون - بصورة من يجهل ملكه ، ولا يعلم إلا ما يراه ويعلّمه بأمارة ، ولا يمـيز الأشياء إلا بعلامة ، وذلك حدث - كما يزعم السفر - حين أراد الله أن يهلك جنود فرعـون وأنصـاره ، حيث طلـب مـن موسـى أن يـأمر بنـي إسرائيل بأن يذبحوا ذبائح ، ويصيبوا أبواب دورهم ، ويلطخـوا أعتابهـا من دمائهـا ، حتـى يعـرف الـرب أنهـا بيـوت بنـى إسرائيل فيتركهـا ، ويجتاز إلى بيوت المصريين التى ليست لها هذه العلامة فيهلكها .

يقول السفر :

" فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة ، وأضرب كـل بكـر فـى أرض مصر من الناس والبهائم ، وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريـيـن ، أنا الرب . ويكون لكم الدم علامة على البيـوت التـى أنتـم فيهـا . فـأرى الدم وأعْبُر عنكم . فلا يكون عليكم ضربة للهـلاك حيـن أضـرب أرض مصر " (١) .

" فدعا موسى جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم اسـحبوا وخـذوا لكـم غنما بحسب عشائركم واذبحوا الفصح ، وخذوا باقة زُوفَـا ، واغمسـوها فى الدم الذى فى الطست ، ومسّوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فـى الطست ، وأنتم لا يخرج أحد منكم مـن بـاب بيتـه حتـى الصبـاح ، فـإن الرب يجتاز ليضـرب المصرين ، فحيـن يـرى الـدم علـى العتبـة العليـا

---

(١) خروج ١٢ / ١٢ - ١٣ .

والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب ، فتحفظون هذا الأمر فريضة لك ولأولادك إلى الأبد " (١) .

فهل كان الله بحاجة إلى علامة ليتمكن بواسطتها من تحديد أهدافه التى سيضربها ؟! وكيف يكون إلها من كان كذلك ؟!

تعالى الله عما يصفون .

ويصور العهد القديم الله تعالى بصورة من يفعل الشئ دون تقدير سابق ، ويقبل على صنع الأشياء دون رويّة وتأمل ، ومن غير حساب للعواقب ، والعياذ بالله من هذا .

فهو تعالى – حسب ما يذكر سفر التكوين – يندم على أنه خلق الإنسان :

" ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض ، وأن كل تصوّر أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه ، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته ، الإنسان مع بهائم ودبّابات وطيور السماء لأنّى حزنت أنّى عملتهم " (٢) .

ويصور سفر الخروج الله تعالى ، بصورة الأحمق الذى يتسرع فى اتخاذ القرار ، ثم يندم عليه بعد ذلك ، فيقول السفر :

---

(١) السابق / ٢١ – ٢٤ .

(٢) تكوين ٦ / ٥ – ٧ .

" وقال الرب لموسى : رأيتُ هذا الشعب ، وإذا هو شعب صُلب الرقبة ، فالآن اتركنى ليحميَ غضبى عليهم وأفنيهم ، فأصيرك شعبا عظيما ، فتضرع موسى أمام الرب إلهه ، وقال : لماذا يارب يحمىَ غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ، لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض ، ارجع عن حُمُوّ غضبك واندم على الشر بشعبك ، اذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء ، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض ، التى تكلمتُ عنها فيملكونها إلى الأبد . فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه " (١) .

ويذكر سفر أيوب أن الشيطان جاء ذات يوم فى وسط بني الله ، ووقف أمام الرب ، ودار حوار بينه وبين الرب ، وأن الرب قال للشيطان عن أيوب إنه ليس فى الأرض مثله لكماله واستقامته وتقواه ، فأجاب الشيطان بأن هذا حدثٍ من أيوب لما هو فيه من النعم ، أما لو ابتلاه الرب وجرّده من هذه النعم ؛ فلسوف يكفر ، فأراد الرب أن يثبت للشيطان أن أيوب كامل ومستقيم فى كل الأحوال ، فقام بتجريد أيوب من كل ماله ، فلم ينسب أيوب لله جهالة (٢) .

ثم يذكر السفر أن الشيطان جاء مرة أخرى فى وسط بني الله ، وأخبره الرب بأن أيوب ليس مثله فى الأرض أحد فى تقواه وكماله

---

(١) خروج ٣٢ / ٩ – ١٤ .

(٢) راجع الإصحاح الأول من السفر المذكور / ٦ – ٢٢ .

واستقامته ، وأن الشيطان حرّض الرب وأهاجه واستثاره على أيوب ، فابتلاه من غير داع ، ولا لشئ إلا لتحريض الشيطان .

" فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ، لأنه ليس مثله فى الأرض رجل كامل ومستقيم ، يتقى الله ويحيد عن الشر ، وإلى الآن هو متمسك بكماله ، وقد هيّجتنى عليه لأبتلعه بلا سبب "(١)

ولكن الشيطان قال للرب إنك لو ابتليته فى جلده فلن يصبر ... إلى آخر ما جاء فى السفر .

وهكذا يصور هذا السفر أن تصرفات الله - تعالى - ليست بقدر ، وأنه إنما تصرف كرد فعل على كلام الشيطان وتحريضه ، وأنه ظلم أيوب إذ ابتلاه بدون سبب ، وأنه - تعالى - كبعض البشر الذين لا يملكون أعصابهم ، ويكون من السهل اللعب بعواطفهم ، والتأثير على تصرفاتهم وأحكامهم بتهييجهم واستثارتهم ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيراً .

وفى ذات الاتجاه ، وهو تصوير الله تعالى بصورة من يفعل الشئ ثم يندم عليه ، جاء فى سفر صمويل الثانى :

" فجعل الربّ وبأً فى إسرائيل من الصباح إلى الميعاد ، فمات من الشعب من دانةَ إلى بئر سبع سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب عن الشر ، وقال للملاك المهلك

---

(١) أيوب ٢ / ٣ .

الشعب كفى ، الآن رُدَّ يدك " (١) .

ووردت نصوص فى سفر الخروج تنعت الله تعالى بالحلول والإقامة فى مكان يحويه - تعالى الله عن ذلك - كما يحل الإنسان فى مكان ويقيم فيه ، وأنه كان يسير مع القوم ، ينزل بنزولهم ، ويرحل برحيلهم .

ومن ذلك :

" وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق ، وليلا فى عمود نار ليضيئ لهم لكيِ يمشوا نهاراً وليلاً ، لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلا من أمام الشعب " (٢) .

" وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ، ويتكلم الرب مع موسى ، فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفا عند باب الخيمة ، ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد فى باب خيمته ، ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه " (٣) .

بل إن قصص العهد القديم ينسب لله تعالى أنه يأمر بالفحشاء والموبقات ، والعياذ بالله .

---

(١) صموئيل الثاني ٢٤ / ١٥ - ١٦ .

(٢) خروج ١٣ / ٢١ - ٢٢ .

(٣) السابق ٣٣ / ٩ - ١١ .

ففى سفر هوشع :

" أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب " (١) .

وهكذا تبلغ النذالة بكاتب هذا السفر ، فيتجرأ على نسبة هذا القبح لله تعالى ، ولكن يبدو أن اليهود أرادوا أن يبرروا مسلكهم اللاأخلاقى فى العالم قديما وحديثا ، فحاولوا أن يضفوا على أخلاقهم المنحطة صبغة شرعية ، فكان أن افتَرَوْا على الله الكذب . قبحهم الله .

ولقد كذّب الله تعالى هؤلاء السّفلة وأمثالهم فى قوله سبحانه :

" وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون " (٢) .

فهل يعقل أن هذا الشرك ، وتلك الخرافات المضحكة ، والوثنيات الكافرة التى طفح بها العهد القديم ؛ يمكن أن يكون مصدراً لقصص القرآن الكريم الذى لا يحوى إلا التنزيه المطلق لله رب العالمين ؟

ب- الاختلاف فى الحديث عن الملائكة :

وقد جاء فى قصص العهد القديم أن الملائكة يأكلون ويشربون ، وأنهم يتغذون كما يتغذى البشر ، ففى سفر التكوين :

---

(١) الإصحاح الأول / ٢ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٨ .

" وظهر له الرب عند بلُّوطات ممْرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة ، وسجد إلى الأرض ، وقال : ياسيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك ، ليُؤْخذ قليل ماء ، واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون ، لأنكم قد مررتم على عبدكم ، فقالوا : هكذا تفعلُ كما تكلمتَ .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة ، وقال : أسرعي بثلاث كيْلات دقيقا سمينا ، اعجني واصنعي خبز ملّة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصا وجيّدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبداً ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا (1) .

" فجاء الملاكان إلى سدوم مساء ، وكان لوط جالسا في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض ، وقال يا سيّديّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تُبكّران وتذهبان في طريقكما ، فقالا: لابل في الساحة نبيت ، فألحّ عليهما جدًّا، فمالا إليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة وخبزَ فطيراً فأكلا " (2) .

فالملائكة – كما يقرر السفر – أكلوا زبدا ولحما ، وشربوا لبنا

---

(1) تكوين ١٨ / ١ – ٨ .

(2) السابق ١٩ / ١ – ٣ .

عند إبراهيم ، وقدم لهم لوط فطيراً مخبوزاً فأكلوا (١) .

والقرآن الكريم يختلف مع العهد القديم فى هذا الأمر ، فليس فيه أن الملائكة يأكلون أو يشربون، ويذكر القرآن أن إبراهيم عليه السلام حين قدّم إليهم ضيافته لم يمدوا أيديهم إلى طعام مما أحضره لهم، ولم يتذوقوا منه شيئاً، وأن لوطا عليه السلام لم يعرض عليهم أكلا ولاشربا .

قال تعالى :

" ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة * قالوا لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط " (٢) .

" ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل من رشيد * قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد *

---

(١) هل يعلم المستشرقون - وخاصة النصارى منهم - أنه جاء فى العهد الجديد ما يخالف العهد القديم فى هذا الأمر ، فقد ورد فى الإنجيل أن الناس فى الجنة مثل الملائكة : " فأجاب يسوع وقال لهم [أى لقوم من الصدوقيين الذين سألوه] أليس لهذا تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولاقوة الله لأنهم متى قاموا من الأموات لا يُزوِّجون ولا يزوَّجون بل يكونون كملائكة فى السماوات " (إنجيل مرقس ١٢ / ٢٤ - ٢٦) ، فبأي شئ يؤمنون ؟ هل يؤمنون بأن الملائكة كالبشر كما فى العهد القديم ، أم يؤمنون بأنهم ليسوا كالبشر ؟ .

(٢) سورة هود : ٦٩ - ٧٠ .

قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب " (١) .

وجدير بالذكر أن العقيدة الإسلامية فى الملائكة أنهم خلقوا من نور ، فهم أجسام نورانية لا تأكل ولاتشرب ولا تتناكح أو تتناسل ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

جـ- قصص العهد القديم يحوي كثيراً من الأكاذيب والمتناقضات :

وينفرد قصص القرآن الكريم بخلوّه من التناقضات والأكاذيب والخرافات ، وصدق الله القائل : " إن هذا لهو القصص الحق " (٢) ، والقائل أيضا : " لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " (٣) .

وأما قصص العهد القديم فعلى خلاف ذلك ، حيث يحتوى على كثير من الأكذوبات والمتناقضات ، ويجمع منها ما يفوق الحصر .

ومن ذلك ما جاء فى سفر التكوين :

" وأوصى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل

---

(١) أيضا ٧٧ - ٨١ .

(٢) سورة آل عمران : ٦٢ .

(٣) سورة يوسف : ١١١ .

منها موتا تموت " (١) .

ثم قال فى الاصحاح التالى :

" فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل ، فانفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر " (٢) .

فانظر إلى هذا التناقض والكذب على الله تعالى ، حيث أخبر آدم بأنه سيموت موتا إذا أكل من الشجرة المنهيّ عنها ، ثم إنه أكل منها هو وزوجه ، فما ماتا ، فكيف أخلف الله وعيده ، وكيف يناقض كلامه بعضه بعضا ؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

وقد جاء فى سفر التكوين أيضا أن الله تعالى غضب على الجنس البشرى ، لأن شر الإنسان قد كثر فى الأرض ، بل وحزن الله – تعالى عن ذلك – أنه عمل الإنسان ، وتأسف فى قلبه ، ومن أجل ذلك جعل أعمار البشر لا تزيد بعد ذلك على مائة وعشرين سنة .

يقول السفر : " فقال الرب لايَدين روحى فى الإنسان إلى الأبد ، لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة " (٣) .

---

(١) تكوين ٢ / ١٦ - ١٧ .

(٢) تكوين ٣ / ٦ - ٧ .

(٣) الإصحاح ٦ / ٣ .

ولكن هذا لم يحدث ، بل الذى حدث هو النقيض ، فكثير من البشر بعد ذلك عاشوا وزادت أعمارهم عن مئة وعشرين عاما .

فقد ذكر سفر التكوين نفسه أن سام بن نوح عاش خمسمئة سنة ، وأن أرفكشاذ بن سام عاش أربعمئة وثلاث سنين ، وكذلك شالح ابنه ، وأن عابر بن شالح عاش أربعمئة وثلاثين سنة ، وأن فالج بن عابر عاش مئتين وتسع سنين ، وأن رعُوَ بن فالج عاش مئتين وسبع سنين ، وأن سَرُوج بن رعُوَ عاش مائتيِ سنة ، وأن تارح بن ناحور بن سَرُوج كانت أيامه مائتين وخمس سنين (١) .

وهناك غيرهم ذكر العهد القديم بعد ذلك أن اجالهم أربت على المائة والعشرين عاما .

هذا ، وقدْ ذكر الإمام ابن حزم - رحمه الله - كثيراً من المتناقضات الظاهرة والتكاذيب الواضحة فى العهد القديم ، أثبتت - دون تكلف - أن ما بأيدى القوم من كتب يزعمون نسبتها إلى الوحي ، قد غشيها التحريف ، واكتنفها البطلان من كل جانب (٢) .

وكذلك ذكر العلامة الشيخ رحمت الله الهندى كثيرا من الأغلاط والتناقضات والتحريفات التى وقعت فى العهدين القديم والجديد ، وذلك فى فصول عديدة من كتابه القيم " إظهار الحق " (٣) .

---

(١) انظر الإصحاح الحادى عشر / ١٠ - ٣٢ .

(٢) راجع الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم جـ١ ص ١٣٨ وما بعدها . دار الكتب العملية . بيروت . ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

(٣) انظر جـ ١ ص ١٣٣ وما بعدها ، ومواضع متفرقة من الكتاب .

وننقل عنه هنا بعضا مما ذكره فى هذاالصدد ، فيما يلى :

١- الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صمويل الثانى هكذا : " وأتى جاد إلى داوود وأخبره قائلا : إما أن يكون سبع سنين جوعا لك فى أرضك " .. الخ . وفى الآية الثانية عشرة من الإصحاح الحادى والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا : " إما ثلاث سنين جوعا " إلى آخره . ففى الأول سبع سنين وفى الثانى ثلاث سنين ، وقد أقر مفسروهم أن الأول غلط (١) .

٢- صرح فى الإصحاح الخامس والسادس من سفر صموئيل الثانى أن داوود عليه السلام جاء بتابوت الله بعد محاربة الفلسطينيين ، وصرح فى الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر من السفر الأول من أخبار الأيام أنه جاء بالتابوت قبل محاربتهم ، والحادثة واحدة كما لا يخفى على ناظر الاصحاحات المذكورة فيكون أحدهما غلطا (٢) .

٣- وقع فى الآية التاسعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صمويل الثانى : " بنو إسرائيل كانوا ثمانمائة ألف رجل شجاع ، وبنو يهودا خمسمائة ألف رجل شجاع " وفى الآية الخامسة من الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الملوك الأول : " فبنو إسرائيل كانوا ألف ألف رجل شجاع ويهودا كانوا أربعمائة ألف وسبعين ألف رجل شجاع " (٣) .

---

(١) إظهار الحق ١ / ١٣٤ .

(٢) السابق ١ / ١٣٥ .

(٣) السابق ١ / ١٧٠

٤- الآية السادسة من الإصحاح السابع من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا : " بنو بنيامين : بالع ، وباكر ، وبد يعيئيل ثلاثة أشخاص " وفى الإصحاح الثامن من السفر المذكور هكذا : " ولد بنيامين ولده الأكبر بالع والثانى إشبيل والثالث أخرخ ، والرابع نوحه ، والخامس رافا " وفى الآية الحادية والعشرين من الإصحاح السادس والأربعين من سفر التكوين هكذا (نسخة سنة ١٨٤٨) : " بنو بنيامين : بالع ، وباكر ، وإشبيل ، وجيرا ، ونعمان ، وإيحي ، وروش ، ومفيم ، وحفيم ، وأرد " ففى العبارات الثلاث إختلاف من وجهين : الأول فى الأسماء ، والثانى فى العدد ، حيث يفهم من الأولى أن أبناء بنيامين ثلاثة ، ويفهم من الثانية أنهم خمسة ، ويفهم من الثالثة أنهم عشرة (١).

د- الاختلاف فى الحديث عن الأنبياء من حيث العصمة :

ثم إن من أوجه الاختلافات البارزة بين قصص الأنبياء فى القرآن الكريم وفى العهد القديم - إضافة إلى ما سبق - ؛ أن العهد القديم يتحدث عن الأنبياء من منطلق أنهم غير معصومين ، شأنهم شأن عامة الناس وأراذلهم ، ومن ثم يجوّز فى حقهم بل وينسب إليهم فعل المعاصى والمنكرات ، ويصفهم - صلوات الله عليهم وتسليماته - بأوصاف لا تليق بقدرهم باعتبار أنهم صفوة الله من خلقه ، وأمناء وحيه تعالى إلى البشر ، كما ينعتهم بالقبائح ، وينسب إليهم المساوئ والشناعات والمعاصى والمحرمات ، التى لا تليق بإنسان محترم وقور ، فضلاً عن نبي مرسل معصوم .

---

(١) أيضا ١ / ٢٧١ .

أما قصص القرآن وحديثه عن **الأنبياء ، فإنه** حديث وقور ، من منطلق أن الأنبياء صلوات الله عليهم وتسليماته قد عصم الله تعالى ظواهرهم وبواطنهم من ارتكاب محظور يخالف الشرع ، أو الوقوع فى محرم يغضب الرب سبحانه وتعالى ، ومن ثم فإنه يتحدث عنهم ويذكرهم بما يليق بهم من العصمة والإجلال ، ولا ينسب إليهم إلا الكريم من الفعال ، والمباح من الأعمال .

وها هى ذى بعض الأمثلة على ما ذكرنا من مسلك العهد القديم :

١- ينسب سفر التكوين إلى نوح عليه السلام أنه شرب الخمر وسكر وتعرى ، وهزئ به بعض أبنائه ، فقد جاء فيه :

" وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما ، وشرب من الخمر ، فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجا ... " الخ (١) .

٢- وينسب سفر التكوين أيضا إلى إبراهيم عليه السلام الكذب ، ويصوره بصورة من يتاجر بامرأته ، ويتكسب من ورائها ، ليصيب عرضا حقيراً من الدنيا وحطامها الفانى ، حيث اتفق مع امرأته سارة على أن يقول للناس عنها إنها أخته وأن تقول عنه إنه أخوها ، كلما دخلا بلداً ، ليحصل له بذلك منفعة مادية كبيرة .

يقول السفر على لسان إبراهيم :

---

(١) الإصحاح التاسع / ٢٠ - ٢٢ .

" وحدث لما أتاهنى الله من بيت أبى أنىّ قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين إليّ ، فى كل مكان نأتى إليه قولى عنى هو أخى " (١) .

ويذكر السفر أنهما نفّذا هذا النهج الدنيئ مرتين :

" فحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك . لأن الجوع فى الأرض كان شديداً ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك ، وتحيا نفسى من أجلك .

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة أبرام ، فدعا فرعون أبرام وقال ما هذا الذى صنعت بى . لماذا لم تخبرني أنها امرأتك لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى ، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب . فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له (٢) .

ثم يتكرر هذا من إبراهيم وزوجته ، فيتصرفان نفس التصرف والسلوك – كما يذكر السفر – مع أبيمالك ، ملِكِ جَرار (٣) .

---

(١) الإصحاح العشرون / ١٣ .

(٢) الإصحاح ١٢ / ١٠ – ٢٠ .

(٣) راجع الإصحاح ٢٠ / ١ – ١٨ .

٣- وينسب سفر التكوين إلى لوط عليه السلام التقاعس والتوانى فى تنفيذ أمر ربه عز وجل ، حين أمره بالخروج من المدينة ، فيقول السفر :

" ولما طلع الفجر كان الملكان يعجّلان لوطا قائِليْن : قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتيْن لئلا تهلِك بإثم المدينة ، ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة " (١) .

٤- وأيضا ينسب سفر التكوين إلى لوط أنه زنا - حاشاه - بابنتيه ، بعد أن سقتاه خمراً ، حيث ظنتا أن الأرض قد خلت ممن تستبقيان منه نسلا .

يقول السفر :

" وصعيد لوط من صُوغَر وسكن فى الجبل ، وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن فى صُوغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلُمّ نسقى أباناخمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمراً الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه ، فنحيي من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما

---

(١) الإصحاح ١٩ / ١٥ - ١٦ .

خمرا فى تلك الليلة أيضا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب ، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة ايضا ولدت ابنا ودعت اسمه بَنْ عَمِّى ، وهو أبو بنى عمّون إلى اليوم " (١) .

فكيف يطلق الله نبيه ويتركه ليواقع ابنتيه واحدة بعد الأخرى ؟

إن هذه لفضائح وسوءات لم يستح كاتب السفر - قبحّه الله - من تسطيرها ، ولم يخجل اليهود والنصارى من تصديقها .. ونحن المسلمين نقول سبحانك هذا بهتان عظيم .

٥- ويصور سفر الخروج النبي هارون عليه السلام بصورة الرجل الذى خان رسالة ربه التى أرسله بها ، وتنكر لمبادئها التى يدعو إليها ، حيث ينسب إليه عليه السلام أنه أعان بنى إسرائيل على الإشراك بالله ، ويسرلهم عبادة غيره سبحانه ، بأن صنع لهم عجلا ليتخذوه إلها معبوداً من دون الله رب العالمين .

يقول السفر :

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هاورن وقالوا له قم اصنع لنا آلهه تسير أمامنا لأن هذا الرجل موسى الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه ، فقال

---

(١) تكوين ١٩ / ٣٠ - ٢٧ .

لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم ، وأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ... " (١) إلخ .

٦- وينسب سفر صمويل الثانى إلى داود عليه السلام أنه رأى امرأة تستحم ففتن بها ، وشغفته حبا ، وكانت زوجة لأحد جنوده يسمّى أوريّا الحِثيِّ ، فزنا بها داود وتخلص من زوجها بالقتل ، وأنّ فِعْله هذا قبُح فى عينىِ الرب فعنّفه على ذلك وتوعده ... (٢) إلخ .

وهكذا تبدو لنا ملامح صورة الأنبياء فى العهد القديم ، فنرى لهم - عليهم صلوات الله وتسليماته - صورة تعلوها غبرة ، وتكتنفها المهانة ، وسيرتهم تلطخها الشناعات ، وتملؤها المعاصى والانحرافات، وتلفها القبائح والمنكرات الموبقات .

أما الصورة التى يرسمها لهم القرآن الكريم فهى على عكس مافى العهد القديم تماما ، حيث نرى صورة فى القرآن وضاءة مشرقة ، وسيرة حميدة طيبة .

وحديث القرآن المفصّل عن الأنبياء والمرسلين يسير فى إتجاه

---

(١) خروج ٣٢ / ١ - ٦ .

(٢) راجع الإصحاح الحادى عشر من سفر صمويل الثانى : ٢ - ٢٦ ، والإصحاح الثانى عشر ٩ - ١٢ .

تقديرهم وإجلالهم ، ولا غرو ؛ فهم صفوة البشر ، وآذان الخير التى تلقت هدى الوحى إلى الخلق .

فسبحان الله القائل : " وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " (١).

أما بعد .. فهذه بعض أوجه الاختلاف بين قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، وفى العهد القديم .

وهذا القدر الذى ذكرنا يقطع بما لايدع مجالا للريب بأن العهد القديم لم يكن أبداً مصدراً للقصص فى القرآن الكريم ، وأن القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان تلميذاً نابها للعهد القديم ؛ زعم باطل ومتهافت ..

فهل بعد هذا ، لايزال يصرّ المستشرقون على زعمهم بأن قصص القرآن الكريم مأخوذ من العهد القديم ؟! .

" كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " (٢) .

رابعاً : النيل من مبدأ عالمية الدعوة الأسلامية :

واستمراراً لحملات المستشرقين وأضرابهم للقضاء على الإسلام ، ومحاولاتهم إضعاف شأنه فى نفوس المسلمين ، والغضّ من قيمته وتشويه صورته ، وإيقاف انتشاره ومدّه ؛ راح كثير منهم يتشدقون بالقول بأن الإسلام لم يكن دينا عالميا ، وأن محمداً نفسه لم يكن فى

---

(١) سورة ص : ٤٧ .
(٢) سورة الكهف : ٥ .

حسبانه أو فى منهجه أن يتوسع فى الدعوة إلى الإسلام خارج دائرة الجزيرة العربية ، فالإسلام لا يعدو أن يكون دعوة محلية إقليمية ، نادى بها رجل محلِّي كذلك .

والمستشرقون على اختلاف طوائفهم يحاولون أن يبلّغوا – قدر استطاعتهم – رسالة إلى العالم ، مفادها أن الإسلام ليس جديراً بأن يتجاوز دائرة العرب ، وأنه دين خاص بقوم يعتبرهم الغرب فى عداد الشعوب المتخلفة ، والأجناس المنحطة المتأخرة ، فكيف يسوغ لأمم الغرب الراقية أن تعتنق هذا الدين المحليِ – فى نظرهم – ، وكيف يحق للعرب أن يتطلعوا إلى نشره فى العالمين ، أو يعتقدوا صلاحيته وأهليته لقيادة البشرية ؟ هذا فى نظرهم مالا يجوز .

لهذا وغيره كان لابد من شن حملة ضارية ، يتولى كبرها المستشرقون ومن يدورون فى فلكهم ، لتجريد الإسلام من خِصِّيصة العالمية ، والنيل من هذه السمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فكان أن ملأوا الدنيا صياحا بأن الإسلام ليس دينا عالميا ، ضاربين -كعادتهم- بكل الحقائق الدامغة عرض الحائط ، ونزلوا ميدان البحث العلمى حاملين هذا المعتقد الذى كوّنوه سلفا ، عازمين على إثباته بشتى الطرق .

يقول ديورانت فى سياق حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ولكن يبدو أنه لم يفكر قط فى توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب " (١) .

---

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٤١ .

وقد " نشرت مجلة (التاريخ) مقالين للأستاذ " سوندرس " المحاضر الأول بقسم التاريخ بجامعة " نيوزيلاندة " ، وقد جعل عنوان المقالين " الخليفة عمر " المستعمر العربى ، وذهب فيهما إلى أن ابتداء انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية ، إنما كان من عمل هذا الخليفة ، ولم يكن عملا داخلا فى برنامج الدعوة المحمدية ، لأن محمدا " عليه السلام " لم يفكر فى دعوة أحد غير العرب إلى الإسلام " (١) .

وأغرب من هذا كله ما يتبجح به هذا المستشرق ، إذ يقول فى صفاقة يحسد عليها :

" ما من دليل وافٍ يدل على أن محمداً كان يتصور الإسلام دينا عالمياً لجميع الناس ، أو يتصور أنه أرسل لهداية شعب من الشعوب غير شعبه العربّيِ " .

ثم يضيف : " ولا شك أن محمداً لم يفكر فى فتح العالم ، وإنما اعتقد أن واجبه الأول أن يمهد لأبناء أمته أسباب الإيمان بدينه ، فإذا صدر عن دعوته فواجبه إذن أن يقابل القوة بالقوة " (٢) .

وكذلك نرى المبشرين يثيرون دائما القول بأن رسالة النبىِ صلى الله عليه وسلم هى قومية عربية ، وليست عالمية لعموم الإنسانية ، وأن انتشارها بين غير العرب إنما هو نتيجة حركة الفتوحات

---

(١) المستشرقون والإسلام . زكريا هاشم ص ٢٨٧ .

(٢) ما يقال عن الإسلام . العقاد . مجموعة الأعمال الكاملة ٦ / ٤٢٤ - ٤٢٥ باختصار .

بعده وحسب (١) .

والحق أن زعم هؤلاء القوم زعم متهافت ، تدحضه دلائل كثيرة ، وتبطله حجج واضحة قوية ، واضحة كالشمس فى ضحاها ، وقوية قوّة الجبال الراسيات ، وهى لاتخفى على أيّ مطالع للقرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقارئ للسيرة النبوية العطرة ، ولا يجحدها إلا مكابر سقيم الفؤاد مريض النفس .

ففى القرآن الكريم والسنة والسيرة ما يؤكد على أن خصوصية العالمية مقترنة بالدعوة الإسلامية ، وثابتة وحاضرة بوضوح فى فهم ونهج الداعى الأول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ بزوغ فجر الإسلام ، وشروق شمسه على الدنيا ، وها هىِ ذى بعض الأدلة على ذلك :

إن القرآن الكريم – مكيّه ومدنيّه – فيه أدلة عديدة تخبر بوضوح وتدل على أن دعوة الإسلام إنما هى لجميع الناس .

فمما ورد بهذا الشأن فى القرآن المكيّ قوله تعالى :

" قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون " (٢) .

" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (٣) .

---

(١) راجع : المبشرون والقرآن . محمد عزة دروزة ص ٢٦٨ . المكتب الإسلامى . بيروت . ط الثانية ١٣٩٧هـ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٣) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

" الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد " (١) .

" وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً " (٢) .

" إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين " (٣) .

ومما ورد فى القرآن المدني قوله تعالى :

" وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً " (٤) .

" إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله "(٥).

" يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم " (٦) .

" يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا " (٧) .

---

(١) سورة إبراهيم : ١ .

(٢) سورة سبأ : ٢٨ .

(٣) سورة يس : ٦٩ – ٧٠ .

(٤) سورة النساء : ٧٩ .

(٥) أيضا : ١٠٥ .

(٦) أيضا : ١٧٠ .

(٧) أيضا : ١٧ .

" إن الدين عند الله الإسلام " (١) .

" ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين " (٢) .

وقد جاء فى موضعين من القرآن الكريم قوله تعالى : " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " (٣) .

وفى موضع ثالث قوله سبحانه : " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً " (٤) .

وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الإسلام سينتشر فى أرجاء المعمورة ، ويسرى فى أنحاء الدنيا ، فعن تميم بن أوس الدارىَ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدَر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزًّا يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر " وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) أيضا : ٨٥ .

(٣) سورة التوبة : ٣٣ ، سورة الصف : ٩ .

(٤) سورة الفتح : ٢٨ .

أصاب من كان كافراً الذل والصغار والجزية " (١) .

وعن سلمان الفارسى ، أنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق ، فغَلُظَتْ عليّ صخرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدّة المكان عليّ ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لَمَعت تحت المِعْول بَرْقة ، قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ، قال : ثم ضرب الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى ، قال : بأبى أنت وأمّى يارسول الله ! ماهذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أو قد رأيت ذلك ياسلمان ؟ قال : قلت نعم ؛ قال : أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق (٢) .

وفى رواية البراء بن عازب قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، قال : وعرض لنا صخرة فى مكان من الخندق لاتأخذ فيها المعاول ، قال : فشكوها إلى رسول الله صلى الله

---

(١) رواه أحمد ٥ / ٧٣ رقم ١٦٥٠٩ ، والطبرانى ، كما فى مجمع الزوائد ٦ / ١٤ ، وقال الهيثمي ورجال أحمد رجال الصحيح ، والحاكم فى ك الفتن والملاحم ٤ / ٤٣٠ - ٤٣١ ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه ابن إسحاق فى السيرة النبوية ٢ / ٢١٩ ، والنسائى فى ك الجهاد ب غزوة الترك والحبشة ٦ / ٤٣ - ٤٤ ، وحسن الحافظ ابن حجر اسناده فى الفتح ٧ / ٤٥٨ ، وروى نحوه البخارى مختصرا فى ك المغازى ب غزوة الخندق . فتح البارى ٧ / ٤٥٦ رقم ٤١٠١ .

عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عوف : وأحسبه قال : وضع ثوبه - ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال : بسم الله ، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أبى هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار فى زمان عمر وزمان عثمان ومابعده : افتحوا ما بدا لكم ، فوالذى نفس أبى هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى محمد صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك (٢) .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى ملوك الأرض الذين يدينون بغير الإسلام ، - فى عصره - برسائل يدعوهم فيها إلى الدخول فى دين الإسلام وترك ماعداه .

عن أنس رضى الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب

---

(١) رواه أحمد ٥ / ٣٩٠ رقم ١٨٢١٩ ، وإسناده حسن كما أفاد ابن حجر فى الفتح ٧ / ٤٥٨ .

(٢) السيرة النبوية ٢ / ٢١٩

إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى (١) .

قال ابن القيم : لما رجع [أى النبي صلى الله عليه وسلم] من الحديبية : كتب إلى ملوك الأرض ، وأرسل إليهم رسله ، وبعث ستة نفر فى يوم واحد من المحرم سنة سبع .

فأولهم عمرو بن أمية الضمرى ، بعثه إلى النجاشي واسمه أصحمة بن أبجر ، وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم واسمه هرقل ، وبعث عبد الله بن حذافة السهميّ إلى كسرى واسمه أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس . واسمه جريج بن ميناء ملك الاسكندرية عظيم القبط ، وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمِر الغسّانى ملك البلقاء ، وبعث سليط بن عمرو إلى هَوْذَة بن علىِ الحنفي باليمامة ، وبعث عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبدالله ابني الجُلَنْدى الأزديين بعمان ، وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى باليمن ، وبعث أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك ، وقيل بل سنة عشر من ربيع الأول داعيين إلى الإسلام ، ثم بعث بعد ذلك عليّ بن أبى طالب إليهم ، ووافاه بمكة فى حجة الوداع ، وبعث جرير بن عبدالله

---

(١) رواه مسلم فى ك الجهاد والسير ب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام . شرح النووى ١٢ / ١١٢ رقم ١٧٧٤ .

البَجَلي إلى ذي الكلاع الحميرى ، وذى عمرو يدعوهما إلى الإسلام ، وبعث عمرو بن أميه الضَمْريّ إلى مسيلمة الكذاب بكتاب ، وكتب إليه بكتاب آخر مع السائب بن العوام أخى الزبير ، وبعث عياش بن أبى ربيعة المخزومى بكتاب إلى الحارث ، ومسروح ، ونعيم بنى عبد كُلال من حمير (١) .

وهاتان رسالتا كسرى وقيصر ، اللتان بعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما ، يدعوهما فيهما إلى الإسلام :

- أما رسالة كسرى فقد كتب فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى، وامن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإن تُسْلِم تَسْلَمْ ، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك " (٢) .

- وأما رسالة قيصر فقد كتب فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمْ تَسْلَم ، وأسْلِم يؤتك

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد . لابن قيم الجوزية ١ / ١١٩ - ١٢٤ باختصار . تحقيق وتعليق شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط السادسة والعشرون ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، وانظر : السيرة النبوية ٢ / ٦٠٦ - ٦٠٧ ، البداية والنهاية ٤ / ٢٦٢ - ٢٧٢ .

(٢) البداية والنهاية ٤ / ٢٦٨ وعزاه إلى ابن جرير .

الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيّين [١] قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضًا أربابا من دون الله فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون " [٢] .

فهل بعد هذا الذى ذكرنا من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، ووقائع السيرة ، وتصرفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون هناك مجال للزعم بأن مبدأ عالمية الدعوة الإسلامية لم يطُف بخيال محمد صلى الله عليه وسلم فى يوم من الأيام ؟!

ومن العجب العجاب أن يذهب المستشرق سوندرز سالف الذكر إلى رد هذه الأدلة التى تنسف ما يزعمه ، من كون الإسلام دعوة محلية خاصة بعرب الجزيرة فقط ، ويقول فى صفاقة نادرة :

" وليست قصة رسائله [أى النبي صلى الله عليه وسلم] إلى الإمبراطور هرقل ، وشاه فارس وملك الحبشة وغيرهم من الرؤساء للدخول فى دينه بالقصة التى تقوم على أساس " .

---

(١) قال الإمام النووى : واختلفوا فى المراد بهم على أقوال ، أصحها وأشهرها أنهم الأكارون أى الفلاحون والزارعون . مسلم بشرح النووى ١٢ / ١٠٩ . وانظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٣٨ ، فتح البارى ١ / ٥١ .

(٢) رواه البخارى فى ك بدء الوحى ب ٦ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ... فتح البارى ١ / ٤٢ - ٤٣ رقم ٧ ، وفى ك الجهاد ب دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الناس إلى النبوة . الفتح ٦ / ١٢٨ رقم ٢٩٤١ ، ومسلم فى ك الجهاد ب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الشام يدعوه إلى الإسلام شرح النووى ١٢ / ١٠٣ - ١١٠ رقم ١٧٧٣ ، وأحمد ١ / ٤٣٣ - ٤٣٤ رقم ٢٣٦٦ .

فإذا كان ما ورد فى الصحاح وخاصة صحيحي البخارى ومسلم ، وتضافرت على روايته كتب التاريخ والسيرة ؛ لايقوم على أساس عند هذا المستشرق المتعالم ، فما هو الذى يقوم على أساس إذن ؟

إنه - والله - لا أحد أصلب منه وجها ، ولا يُدرى من أيَ أديم الأرض شق وجهه .

وإن هذا لمسلك - فى البحث - منكر وعجيب ، ولا ينمّ إلا عن جهل ، أو عجز وإفلاس .

أجل ، عجز عن مواجهة الحجج الدامغة ، وهروب من المواجهة ، وإفلاس من الدليل والبرهان الذى يساند ما يزعمه ويدعيه .

إذا كانت هذه الأدلة الصحيحة فى ثبوتها ، الصريحة فى مدلولاتها ، لا تصح عند هذا المستشرق وأضرابه ، فما الذى يصح عندهم ؟

لا يضرنا أن يردوا ما صحَ عندنا - ولا ينكره أحد من المنصفين - وليسمحوا لنا أن نيلهم على ما يصح عندهم بهذا الخصوص ، ونحن من جانبنا لن نرده ، وسنمسك عن القول بعدم صحته .

فقد ذكر إنجيل متى أن المسيح عليه السلام أرسل تلاميذه الاثني عشر ، وأوصاهم قائلا :

" إلى طريق أممٍ لا تَمْضُوا ، وإلى مدينة للسامر يّين لا تدخلوا بل

اذهبوا بالحريِّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة " (١) .

ولما جاءته امرأة كنعانية تستغيث به ليشفيِ ابنتها ، وطلب منه تلاميذه أن يصرفها أجاب وقال – كما يذكر متىّ – :

" لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة " (٢) .

وهكذا يصرح المسيح عليه السلام بأنه لم يُرسل إلى غير الإسرائيليين ، بينما يصرح القرآن الكريم بعالمية الرسالة المحمدية فى قوله تعالى : " قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا " (٣) .

وتبقى الحقيقة مشرقة فى سماء الكون مهما أنكرها الجاحدون ، وهى أن الإسلام دين الله للناس كافة ، ورحمة الله للعالمين .. فالحمد لله الذى هذا نا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

---

(١) الإصحاح الخامس عشر : ٢٤ .

(٢) الإصحاح الخامس عشر : ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : ١٥٨ .

المراجـــــع

١- القرآن الكريم .. سبحان من أنزله .

٢- أباطيل وأسمار . محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

٣- أحكام القرآن لابن العربى المالكى . تحقيق محمد عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٤- أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى . د/ على جريشه ، محمد شريف الزيبق . دار الاعتصام . القاهرة .

٥- الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية . إبراهيم خليل أحمد . مكتبة الوعى العربى . القاهرة .

٦- الاستشراق وجه للاستعمار الفكرى. د/ عبد المتعال محمد الجبرى. مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م .

٧- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى . د/ محمود حمدى زقزوق . دار المنار . القاهرة . الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .

٨- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم . د/ مصطفى السباعى. المكتب الإسلامى . بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٩- الإسلام دعوة عالمية . عباس العقاد . ضمن مجموعة الأعمال الكاملة . دار الكتاب اللبنانى . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧٤م .

١٠- الإسلام على مفترق الطرق . محمد أسد . ترجمة د/ عمر فروخ مكتبة المنار بالكويت . الطبعة السابعة ١٩٧٤م .

١١- الإسلام فى تصورات الغرب . د/ محمود حمدى زقزوق . مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، وهو عبارة

عن ترجمة لفصول مختارة من كتاب " موجز في أدب علوم الإسلام " للمستشرق الألماني " جوستاف بفانموللر " .

١٢- إظهار الحق . تأليف الشيخ رحمت الله الهندى . تحقيق د/ أحمد حجازى السقا . دار التراث العربى . القاهرة . الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

١٣- إعادة النظر فى كتابات العصريين فى ضوء الإسلام . أنور الجندى . دار الاعتصام . القاهرة .

١٤- إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى الحديث . مالك بن نبى . دار الإرشاد . بيروت . الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

١٥ أوربا والإسلام . د/ عبد الحليم محمود . دار المعارف . مصر . الطبعة الرابعة .

١٦- البداية والنهاية للإمام ابن كثير تحقيق د/ أحمد أبو ملجم وآخرين دار الريان للتراث.القاهرة.الطبعة الأولى١٤٠٨هـ ١٩٨٨ م .

١٧- تاريخ الأدب العربى . أحمد حسن الزيات . دار نهضة مصر . القاهرة .

١٨- التبشير والاستعمار فى البلاد العربية . د/ مصطفى خالدى ، د/ عمر فروخ . المكتبة العصرية . صيدا . بيروت ١٩٨٦م .

١٩- تراث الإسلام . تصنيف جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث ، ترجمة د/ محمد زهير السمهورى وآخرين . سلسلة عالم المعرفة. الكويت . الطبعة الثالثة ، المحرم ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٢٠- تفسير القرآن العظيم . للإمام ابن كثير . دار الغد العربى . القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٣م .

٢١- الجامع لأحكام القرآن . للقرطبي . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣ م .

٢٢- حاضر العالم الإسلامي تأليف لوثروب ستودارد . ترجمة عجاج نويهض . تعليق شكيب أرسلان . دار الفكر بيروت . ط. الرابعة ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٣م .

٢٣- حضارة الإسلام . جوستاف إ. فون جرونيباوم . ترجمة عبد العزيز توفيق الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٩٧م.

٢٤- حياة محمد . د / محمد حسين هيكل ، دار المعارف . مصر . ط. السادسة عشرة .

٢٥- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا . محمود محمد شاكر . سلسلة كتاب الهلال . دار الهلال بالقاهرة العدد ٤٨٩ . الطبعة الثالثة . سبتمر ١٩٩١ م .

٢٦- زاد المعاد في هدي خير العباد . لابن القيم الجوزية . تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عبدالقادر الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت ط. السادسة والعشرون ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م .

٢٧- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي . مراجعة وتصحيح صدقي محمد جميل العطار . دار الفكر . بيروت . ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م .

٢٨- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي . د / مصطفى السباعي . المكتب الإسلامي . بيروت ط. الثانية ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .

٢٩- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام

السندي ، دار الريان للتراث . القاهرة . ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م .

٣٠- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة بيروت ط. الثامنة . ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م .

٣١- السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين . دار الوفاق ، بيروت .

٣٢- السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية . زياد أبو غنيمة دار عمان . الأردن . الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

٣٣- شبابنا فى وجه الإعصار الغربى . عبد القادر عبار . مجلة الأمة. تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية فى قطر . العدد الخمسون . السنة الخامسة . صفر ١٤٠٥هـ نوفمبر ١٩٨٤م .

٣٤- صحيح مسلم بشرح النووى . دار الريان . القاهرة .

٣٥- صفة الصفوة لابن الجوزى . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .

٣٦- صور استشراقية . د/ عبد الجليل شلبى . دار الشروق . القاهرة. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٩م .

٣٧- العالم الإسلامىوالمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجرى. فتحى يكن. مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٣٨- الغارة على العالم الإسلام . تأليف أ.لُ شاتيليه . لخصها ونقلها إلى العربية . محب الدين الخطيب . ومساعد إليافى . المطبعة السلفية القاهرة . الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ .

٣٩- الغزو الفكرى فى وسائل ثقافة الطفل المسلم . مظاهره . أثاره .

كيفية مواجهته . للمؤلف ، رسالة العالمية (الدكتوراه) بكلية أصول الدين بالقاهرة ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م .

٤٠- فتح البارى بشرح صحيح البخارى. للحافظ ابن حجر. دار الريان القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م .

٤١- الفرنسى السافل فى الجامعة الأمريكية. محمد القدوسى. جريدة الشعب المصرية. عدد ١٢٦٠، ٢٣محرم١٤١٩هـ ١٩مايو١٩٩٨م

٤٢- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى.د/ محمد البهي مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة العاشرة .

٤٣- فلسفة الاستشراق وأثرها فى الادب العربى الحديث.د/ أحمد سمايلوفيتش . دار المعارف . مصر .

٤٤- فى ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق . بيروت . الطبعة الخامسة عشرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٤٥- قصة الحضارة . تأليف ول ديورانت . ترجمة محمد بدران . جامعة الدول العربية الطبعة الثالثة ١٩٧٤م .

٤٦- الكتاب المقدس . دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط .

٤٧- كتاب يجب وقفه . صلاح منتصر . جريدة الأهرام المصرية . العدد ٤٠٧٠٠ ، ١٧ محرم ١٤١٩هـ ١٣مايو ١٩٩٨م .

٤٨- مؤلفات فى الميزان . أنور الجندى. هدية مجلة منار الإسلام الإماراتية . العدد الخامس . السنة الحادية عشرة .

٤٩- ما يقال عن الإسلام . عباس العقاد . مجموعة الأعمال الكاملة . دار الكتاب اللبنانى . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧٤م .

٥٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . للهيثمى . دار الكتاب العربى .

بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

٥١- مختار الصحاح . محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى . مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٨م .

٥٢- المستدرك على الصحيحين . للحاكم . وبذيله التلخيص للذهبى . دار المعرفة . بيروت .

٥٣- المستشرقون . نجيب العقيقى. دار المعارف. مصر الطبعة الرابعة .

٥٤- المستشرقون والإسلام . زكريا هاشم زكريا . المجلس الأعلى لشئون الإسلامية . القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .

٥٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى . دار إحياء التراث العربى . بيروت . الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

٥٦- المشروع الصيهونى لتفكيك العرب والمسلمين . د/ محمد عمارة جريدة الشعب المصرية عدد ١١٧٦ - ٣ ربيع الأول ١٤١٨هـ ٨ يوليو ١٩٩٧م .

٥٧- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية . القاهرة . الطبعة الثالثة .

٥٨- الموسوعة العربية الميسرة . بإشراف محمد شفيق غربال . دار إحياء التراث العربى . صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م .

٥٩- موسوعة مقدمات العلوم والمناهج . أنور الجندى . دار الأنصار . القاهرة .

٦٠- الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة. الندوة العالمية للشباب الإسلامى. الرياض. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

فهرس الموضوعات